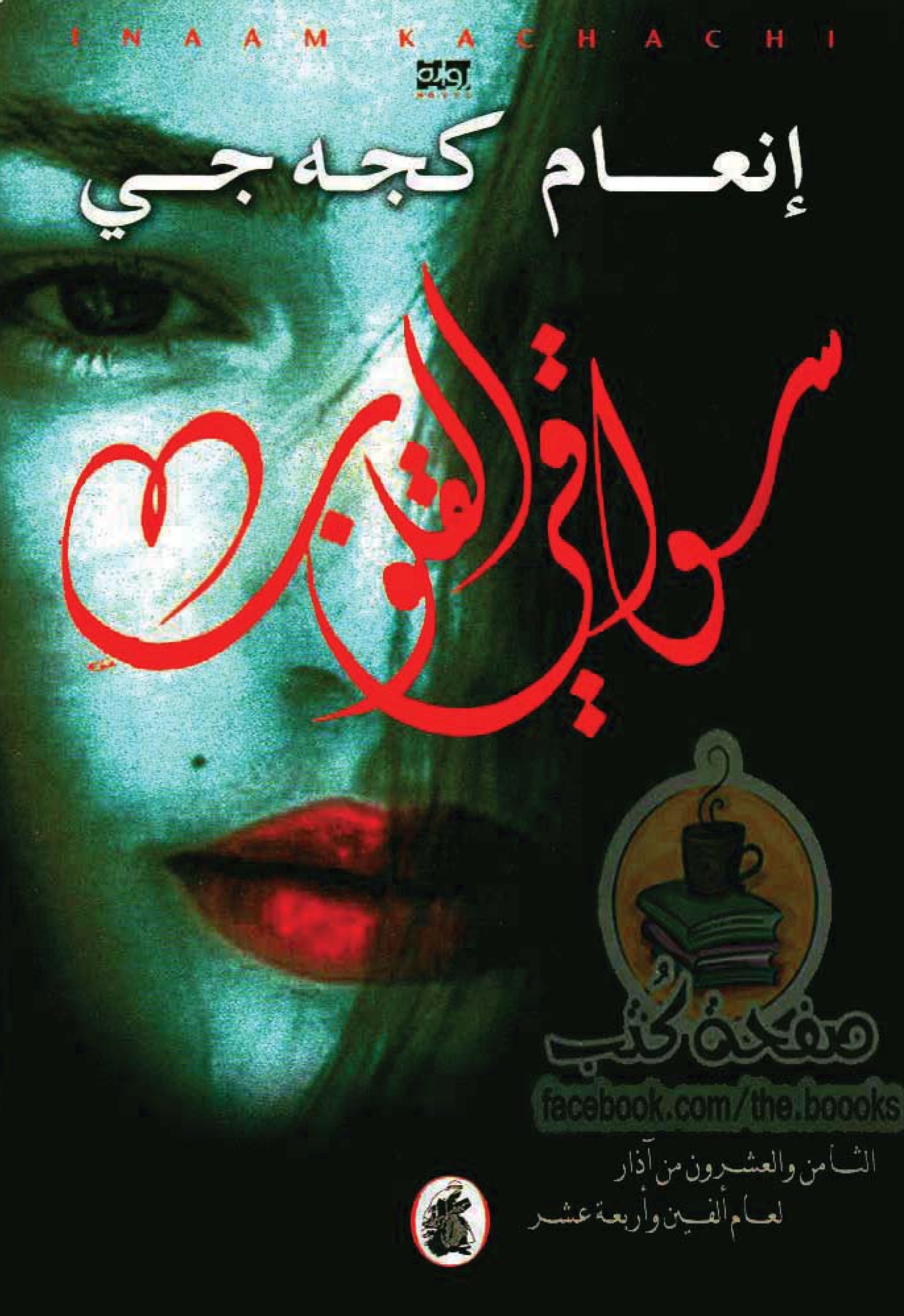


INAAM KACHACHI
إنعام كجه جي
سواقي القلوب
صفحة كتب
facebook.com/the.boooks
الثامن والعشرون من آذار
لعام ألفين وأربعة عشر



سولقي القلوب / رواية
إنعام كجه جي / مؤلّفة من العراق
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
خط الغلاف : غني العاني
تصميم الغلاف : ناجي المير
الصفّ الضوئيّ :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
مصطفى قانصوه للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

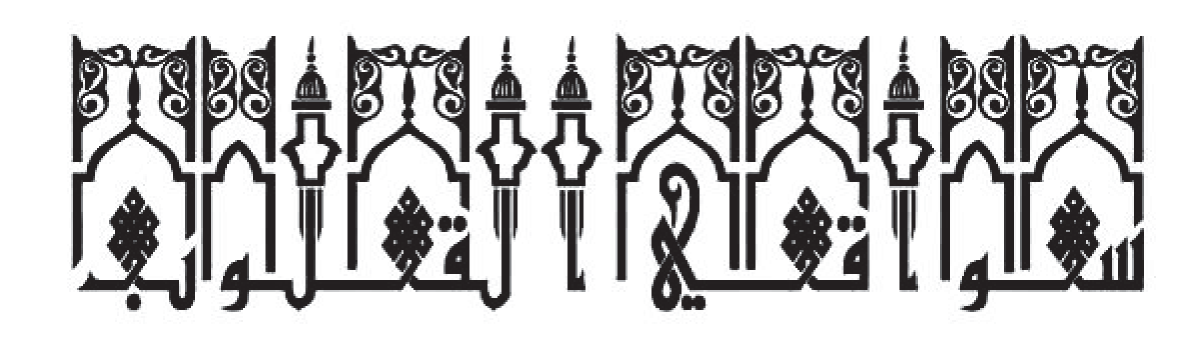
ISBN 9953-36-302-1



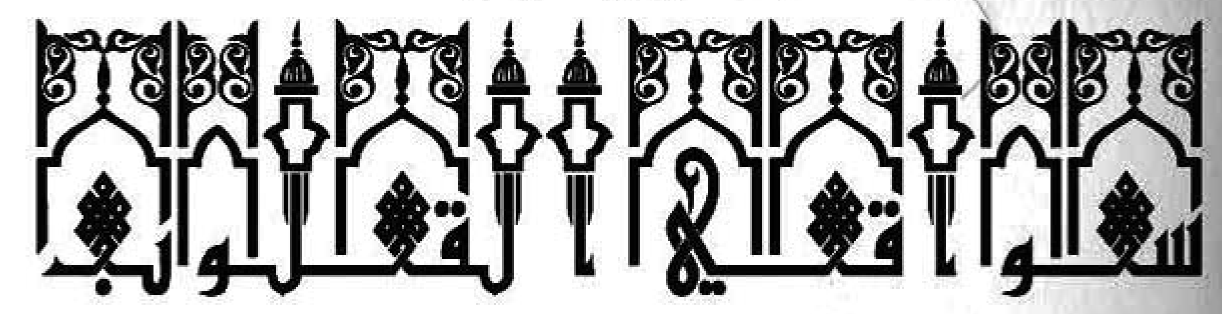
إنعـــام كجـه جـي

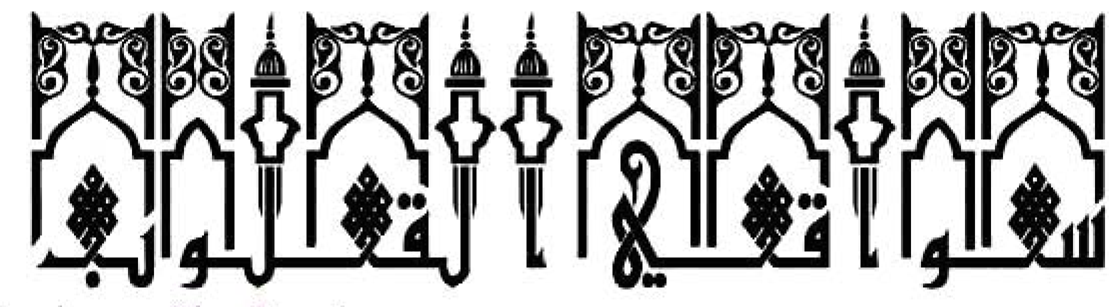






إلى صباح إسطيفان





١

أيّ أحمق، جلف القلب، ذاك الذي قرَّر أنَّ الرجال لا يبكون ؟
أمضيت زهرة سنوات عمري وأنا أنتظر هذا الإياب وأرسم له، على صفحة الغيب، مئات الرؤى السعيدة، دون أن تكون بينها الصورة القاتمة التي أراها الآن. إذ كيف كان لي أن أحزر أنني سأعود مقمَّطاً، لا بالغبطة كما اشتهيت، بل بأسى أسود يُثقل على القلب فيكتم أنفاسه؟
دخلت إلى الوطن، ذات ضحى نيسانيٍّ ساخن، في سيارة أجرة تنقل ثلاثة ركاب، جالساً إلى جوار سائقها، وفي المقعد الخلفي تكوَّمت كاشانية خاتون على نفسها، مثل صندوق عرس عتيق بهتت نقوشه.
ثلاثة أحياء في الداخل، وفوق رؤوسهم يقبع، على سقف السيارة، تابوت ملفوف ببطانية بالية من معامل فتّاح باشا، بمربعات بُنيَّة وزرقاء.
حين لاحت لي، بعيداً على يمين الطريق الصحراويّ، نخلتان تصفّق

سعفاتهما مع لفح ريح غبراء، فاض أساي حتى كاد ينزُّ دمعاً من عينيَّ. وتذكَّرت المرَّات القلائل التي بكيت فيها، وأطبقت جفنيَّ، ضاغطاً عليهما بقوَّة، حابساً ضعفي وراءهما، وكأنني أمنع رجولتي من انفراط مشين. هذا ما تعودت أن أفعله في لحظات ضعفي، منذ أن كنت ولداً دون العاشرة، يوم شقَّت نساء البيت صدورهن وتعالى صراخهن وأخذتني عمَّتي إلى حجرها وخاطبتني مثل رجل صغير، قائلة إنَّ عمود بيتنا قد تهاوى.

أيُّ قوَّاد هو ذاك الذي حكم أن الرجال لا يبكون ؟
كنا قد عبرنا الحدود آتين من الرويشد، وتحوّلت عيناي إلى كاميرتين تدوران لالتقاط كل الغبار والهوام والسيارات المحطَّمة واللافتات الصدئة والصور العملاقة الملوَّثة بالوحل وأكياس النايلون المتطايرة مع الريح والشوك الكالح على جانبي الطريق، وكأنَّ القيامة قد قامت على هذا الجانب من الدنيا. ولمَّا استقبلتني أول نقطة حدود عراقية، تذكَّرت زمزم الذي مرَّ بهذه البقعة، من قبل، وكان يسمِّيها: جمهورية طريبيل المستقلَّة!

أين أنت يا زمزم في هذه الساعة التي لا تشبهها ساعة ؟ في مقهى «الأوديون» تحتسي بيرتك، كفاف يومك، كما هي عادتك منذ عرفتك وعرفتني؟ أمن أجل ذلك الطقس البائس رفضت، يا حَنقَباز السماوة، أن تشاركني رحلة إيابي التي تشلع القلب، قائلاً لي ببرود

قاتل: «إذهب وحدك إلى الجحيم»؟
ليتك معي في هذا الجحيم، ترى ما أرى وتسمع ما يحكيه لي سائقنا الأردني الثرثار الذي يبدو أنَّه، يا ويلي، يستدلُّ على بلدي أكثر مني، و أنا أبحلق فيه مثل تلميذ نجيب عائد من إجازة مَرَضيَّة ويريد أن يلحق بكل ما فاته من دروس، في حصَّة واحدة.
تعال وانظر آثار القذائف على أسفلت الطريق، والكابينات وقد تحولَّت إلى خرائب، وغرف الأمن مسكونة بالقطط السائبة، والمصرف منهوباً، والصالة التي كانت سجناً صارت مرحاضاً قذراً مفتوحاً لمن استعصى عليه الانتظار. أما عنبر التفتيش ونبش الحقائب فقد تمدَّد فيه جنديان حَمَّصَت الشمس وجهيهما، يغفوان القيلولة بكامل عتادهما وقد تركا دبابة مصفَّحة قرب الرصيف.

أتخيَّلك يا زمزم تنحني أمامي و تقول لي مرحبًا، بطريقتك الفاجرة:
- أهلاً بك في جمهورية طريبيل المستقلة... أيُّها الديك العائد إلى المزبلة!
سألني ضابط الجوازات ذو القميص الخاكي القديم والذقن النابتة عن سنة مغادرتي البلد. ولما أجبته ناظراً في عينيه مباشرة كمن يتباهى بوسام الآلام المعلَّق على مؤخَّرة مهترئة من كثرة ما تمسَّحت بأرصفة المدن الغريبة، تأملني بنظرة لئيمة وقال ببرود:
- يعني أنَّك أمضيت في الخارج، يا أستاذ، أحلى سنوات شبابك، التي هي أتعس سنوات شبابنا.

لم أدر بمَ أردُّ عليه ولا كيف أدرأ تحرُّشَه المهين. لقد وضعوه في هذا المكان لكي يمارس هواية تقريع ضمائر العائدين من الخارج، أولئك «الأنذال» الذين لم يلبسوا البسطال مثلما لبسه هو، طائعاً أو رغم أنفه، ولا ارتعدوا أمام آمر الفوج أو اصطكَّت أسنانهم تحت وابل القنابل التي لا تبقي ولا تذر. إن مهمَّته تتلخص في نبش حيثيات ماضيهم الذي أفلَتَ، في صدفة من صدف الزمان، من رقابة الأجهزة الكثيرة التي تترصَّد حتى الأحلام في رؤوس أصحابها ومعاقبتهم على المارق منها.

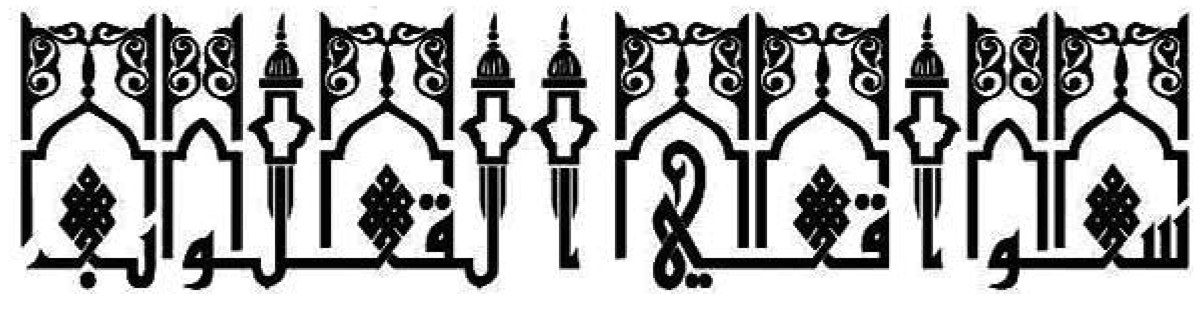
قرأ ذلك الشاب الذي خمَّنتُ أنَّ عمره لا يتعدى الخامسة والعشرين، صفحة عمري في ثوان، واستكشف تاريخي كما يحلو له، ولعلَّه قرَّر أنَّني رجل مشبوه لأنني كنت موفور الحظ، بعكسه، وابتعدت في الوقت المناسب إلى البلد الآخر، الآمن والجميل. كيف أجعله يفهم، يا زمزم، أنَّ الأعمار يمكن أن تتبدَّد هدراً، أيضاً، في أكثر بلدان الدنيا جمالاً، وأنَّ الأعمار إذ تتبدَّد في بلد غريب، بلا حصاد يُذكر، فإنَّ الأمر يصبح أكثر فداحة؟
ماذا يعنيني إذا فهم ذلك الضابط وجهة نظري أم لم يفهم؟ وعلى من تقرأ جنجلوتياتك يا صاحبي؟

تركت أمامه جواز سفري، وجواز الخاتون الرابضة في السيارة، غير قادرة على الترجل منها، وشهادة وفاة سارة، مُتَرجَمة ومُصَدَّقة

حسب الأصول، وتصريح الدفن الصادر من شرطة باريس، ووقفتُ أنتظر أن يفتح لي بوابة العبور إلى بغداد، على أمل أن نصلها قبل المغيب.

بغداد

هل أبيت الليلة فوق سطح من سطوحك؟



٢

لم تكن باريس منفى بل فاصلة جميلة شطرت عمري ووَشَمَتني بختم لا يُمحى. وكنت قد وصلتها ملتاعاً، هارباً من إحباطين ملعونين، سياسيٍّ وعاطفيٍّ. وإذا كانت نجوى هي الحبيبة التي خَذَلتني مَرَّة فإنَّ الحزب كان لحميَ الحي الذي خذلني مرَّات. ومع هذا، فإنني لم أقوَ على الانسلاخ عن جلدي أو الإبتعاد عن الرفاق الذين سبقوني في الرحيل. وهو لم يكن سفراً كما يسافر الناس من مطارات الأرض وهم يحملون الحقائب والهدايا، بل فرار في ليلة سوداء، أحمل في متاعي الخفيف الهموم الثقال لأولئك الَّذين خلَّفتهم ورائي... يمضغون المر ويتنفسون الفساء النتن لجبهة وطنيَّة تحولَّت إلى جثَّة متفسِّخة.

للأمانة، لم تكن باريس مكاناً يناسب حسرة الهاربين من الأوطان. إذ كيف يكون كل هذا الألق والفن والبارات التي لا يغمض لها جفن منفى لأمثالي ممن ضاقت بهم البلاد أو ضاقوا بها ؟ كنت أعرف

أن المنافي تشبه جُزُراً أو مناطق نائية، بدائية، تتقشَّف فيها الحياة حتى تخلو من أي لذاذة... شيئاً مثل هنغام التي نُفيَ إليها زعماؤنا الوطنيون في العشرينات، أيام الإنكليز، أو مثل سيبيريا أو سيشل أو حتى كورسيكا. لكن حتى هذه البقاع أصبحت جنَّات يتسابق عليها السائحون، فما بالك بباريس يا نبيَّ التسكعات يا زمزم؟

كنتُ قد تعثَّرتُ بكَ في حديقة اللوكسمبورغ، في واحد من تلك الصباحات التي تمدُّ فيها عقارب الساعات سيقانها، على مهل، ولا تعود تنفع معها المطالعة أو مشاهدة التلفزيون. ولجأتُ، كعادتي، إلى الحديقة الواسعة التي لم يكن لي مكان، غيرها، يلتهم أشهري الأولى الخاوية في هذا البلد. أما أنت، فكنت تمارس رياضة الهرولة اليومية مثل أيّ برجوازي صغير يخاف على لياقته البدنية، أو مثل طالب بعثة بطران، يتلقى منحة شهرية معقولة، وقد نبتت له كرش صغيرة من كثرة التهام أصابع البطاطا المقلية وعبِّ البيرة.

وقفتَ تلتقط أنفاسك بالقرب من الكرسي الحديدي الأخضر الذي كنت أجلس عليه، وظننتك، باديء الأمر، أحد أولئك المغاربة الذين أصابهم هوس السباقات الدولية فراحوا يركضون بأقصى سرعة وكأنَّ الذئاب في إثرهم. ثم لفت انتباهي أنك تدسّ جريدة «الثورة» البغدادية في حزام سروالك الرياضي، فلم أتمالك نفسي من القول بصوت تعمدته عالياً:

- يا فتَّاح يا رزَّاق... بأي وجه أغبر اصطبحنا اليوم لكي تطلع لنا «الثورة» في اللوكسمبورغ؟

لم تفاجئك عبارتي، وكأنَّ باريس، بالنسبة لك، مزرعة عراقية صرف تحتشد بمواطنيك الآتين من كل المحافظات. أما أنا فقد فاجأتني ضحكتك الطيبة وأنت تمدُّ لي يداً مصافحة وتردُّ على حرشتي بلهجة جنوبية لا تخطئها الأذن:

- خوي أنا لستُ بيّاع جرايد، ولو كنتُ كذلك لجئتك بجريدة «طريق الشعب» وأنا الممنون.

حزرتُكَ وحزرتني، والنهار في أوَّله.

هكذا ابتدأت صداقتنا. من عبارة نَزِقَة منِّي وعبارة حبَّابة منك. وهي صداقة ستُسبِّب لك مشكلات سقيمة مع حزبك، إذ لم يفهم رفاقك الأشاوس كيف يمكن لبعثيٍّ ملتزم، مثلك، أن يصادق شيوعياً «قطمر» في تلك السنوات الملتهبة التي كانت مطاردة السَحَرة، فيها، قائمة على قدم وساق، والحرب مع إيران تُطلق مارد الكراهية من قمقمه؟

هل تظنُّ أنَّ رفاقي، من جهتهم، فهموا الأمر؟

تناولت منك جريدتك لأقرأ تفاعلات مجزرة صبرا وشاتيلا في بيروت، وكنت أشعر بقرف من العجز العربيِّ، ومن نفسي، ومن أخبار الجرائد، ومن كلِّ شيء. فلمَّا قلتَ لي إنَّ الطلبة العرب سيتظاهرون في ميدان تروكاديرو احتجاجاً على ما فعله شارون، ودعوتني إلى الذهاب معك والالتحاق بهم، أسقطتُ عليك إحباطي وسألتك:

- هل ستتظاهرون مكانك سر؟

- وهل تتوقَّع أن نمشي من تروكاديرو إلى القدس؟

غلبتني مَرَّة أخرى فأشحت بوجهي عنك ورحت أتابع عاشقين شابين غارقين في عناق محموم، وسمعتك تقول، بعد برهة، وكأنَّك تخاطب نفسك أو تقرأ أفكاري:

- لماذا يتبادل الناس الحبَّ هنا، تحت شمس النهار، وتحجل الحمائم بين أقدام الأطفال بأمان، وتنطلق قطارات المترو في مواعيدها إلى الضواحي الخضراء، وتذهب العجائز لتسريح شعورهن عند الكوافير، في حين لا تكفُّ الأحداث عن الغليان في أوطاننا الأَبيَّة الغارقة في حروب تطحن البشر ؟

- لأن رَبعَك ومن شابههم من الأشاوس هم الذين يحكموننا .

تقبَّلتَ تهكُّمي بابتسامة عريضة ورددتَ عليَّ بسؤال مضاد لا علاقة له بموضوعنا، لكنه كان كفيلاً بأن ينزع فتيل الخلاف وهو في مهده . قلت لي:

- هل تعرف ما هو مفرد أشاوس ؟

- أشوَس طبعاً. . .

قلتُها بشكل عفويٍّ وتركتَكَ تضحكُ على المفردة الغريبة حتى تخشَّب فكَّاك. وهكذا انتصرتَ عليَّ، في لقائنا الأول ذاك، ثلاث مرَّات يا حنقباز السماوة.

٣

ـ ألو، مساء الخير .

ـ أهلاً. . . من ؟

جاءني صوت نجوى بعيداً مخرخشاً ذا أصداء، كأنها مذيعة في إذاعة خاضعة للتشويش. ولن أغفر لنفسي أنني لم أتعرَّف على صوتها من الهمزة الأولى. كيف يحدث أن يسهوَ المرء عن الموسيقى التي لم يكن يغفو إلا عليها؟ وهل يشفع لي أنني ظللت أحلم بهاتف مثل هذا الهاتف، عدَّة سنوات، فلما تأخَّر نداؤها طوَّحت بعيداً بالزهر الذي ذبل على شرفة الروح، والتفتُ إلى ما يجدُّ من أمري ؟

في أتون استيهاماتي كنت أتخيَّل أنَّها ستتصل بي لكي تقول لي إنَّها قد تطلَّقت من زوجها، أو إنَّه مات بتشمُّع الكبد من شرب الويسكي المغشوش، أو إنَّهم أخذوه إلى الجبهة وعادوا به شهيداً. بل لم تكن غلوائي لتخلوَ من نزعة تشفٍّ أحياناً، فكنت أتمنى لو تتصل بي من بغداد وهي تشهق وتبكي وتقول إنه تزوَّج عليها امرأة أصغر منها

وإنَّها ستترك له البيت وتلحقني إلى باريس.

عندها، وبشهامة من ينكر شخصه المتواضع ويناضل من أجل غد أفضل لأبناء الشعب، سأنصحها بالتروِّي والتفكير في مصير أطفالها، ثم سأقول لها إنَّني أخشى عليها من أن تتبهذل مع منفيٍّ مثلي، لا يملك من دنياه سوى مشاعره المنقوعة في نهر من النبيذ. وطبعاً، ستنخرط نجوى في نوبة بكاء جديدة وهي تحلف لي بأنَّها لا تريد من دنياها سواي، وأنها ارتكبت غلطة عمرها عندما رضخت لسطوة أبيها وتخلَّت عني ووافقت على الزواج من ذلك البغل صاحب معامل العلف الحيوانيّ.

هل تتصور، يا صديقي الطيب زمزم، أنَّ طبق القيمر المُسَمَّى نجوى، خرِّيجة قسم الأدب الأسباني، يمكن أن تعيش سعيدة مع برميل من العلف الحيوانيّ؟

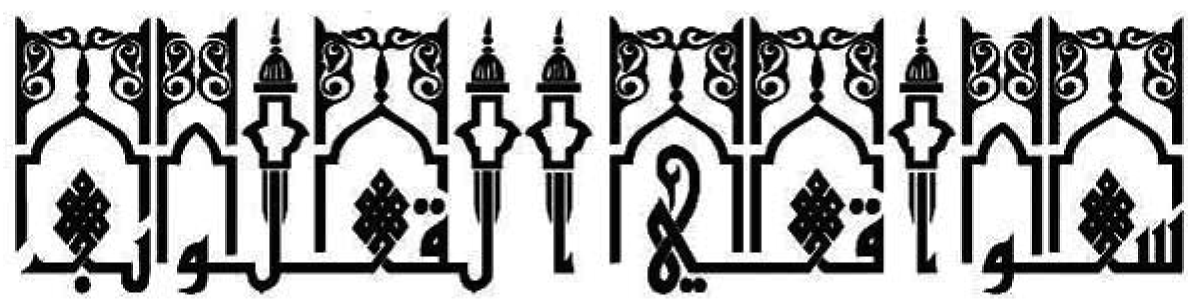
غير أنَّها عندما هاتفتني من بغداد، في ذلك المساء البارد، وأنا أنادم كاشانية خاتون التي فتحت لي واحدة من زجاجات «البوجوليه» التي تحبُّها، فقد كان السبب بعيداً تماماً عن خواطري السابقة... بعيداً إلى الحد الذي طيَّر النبيذ الأحمر من رأسي ومن رأس نديمتي الأرستقراطية العجوز.

لم أسألها من أين جاءت برقمي، فأنت تعرفني أكره الأسئلة المخابراتية. بل أشرتُ إلى الخاتون لكي تخفِّفَ من صوت المسجِّل الدائر بأغنية لزهور حسين، وأصغيتُ بانتباه إلى ما كانت نجوى تشرحه لي، وأنا أحاول أن أستوعب وأحفظ ما تقول.

واليوم، بعد كل ما حصل من عجائب وانكسارات، فإنَّني ما زلت أذكر العبارة الأخيرة التي سمعتها من نجوى وصوتها يتلاشى وسط خرخشات الخط الهاتفي البعيد:

- لن أوصيك به، إنَّه وحيدي بين ثلاث بنيَّات، وأنت لا تحتاج لوصيَّة.

أقول لك إنَّ السكرة طارت من رأسي، لتحلَّ محلَّها خيبات عمري الذي ما انفكَّ يمدُّ لي لسانه شامتاً، كلما ظننتُ أنَّ زمن المفاجآت ولَّى وانقضى.



٤

نصب زمزم كاميرا الفيديو على أرجل معدنية ثلاث أمام الكرسي المتهالك الذي تجلس عليه الخاتون، وكبس على الزر فاشتعلت نقطة حمراء، وأشار إليها بيده في حركة مسرحية كأنه يطلبها للرقص، فتسلّمت الإشارة وابتدأ التسجيل:

- اسمي كاشانية بنت الصائغ ميساك سمّاقيان. جاءت أمّي إلى الموصل مع شقيقتي الكبرى ناجيتين من مذبحة الأرمن التي راح فيها أبي و شقيقاي وبقيّة أهلي. وكانت أمّي حبلى بي، أو لعلّها شقيقتي التي اغتصبها الأجلاف مع المئات من البنات المنكودات الحظ، فألقت حملها على الأم التي تلقّفته وأغلقت فمها على السرّ، ستراً ودرءاً للفضيحة.

لا تسألني كيف جاءتا من هناك ومن الذي أنقذهما لأنني لا أعرف. كل ما قيل لي عن أمّي أنّها لم تكف عن البكاء حتى ماتت كمداً، فأرسلوا شقيقتي إلى الدير، وتعهّدتني، وأنا بنت أشهُر، امرأة موصليّة مسلمة

تدعى أم شيت، أرضعتني من حليبها وربَّتني مع أبنائها، شيت ويونس وعقيلة وغزالة وذنُّون. فلمَّا شببتُ وصرت أفهم الدنيا، كانت ترسلني إلى كنيسة الطاهرة، صباح الأحد، وتعطيني أربعة فلوس لكي أشعل لها شموعاً أمام تمثال العذراء، وفاء لنذر قديم لا ينطفئ.

يشير لها زمزم، من وراء الكاميرا، مسدلاً كفيه على جانبي رأسه، فتلتقط الإشارة وتواصل:

– لا، لم ألبس العباءة في حياتي رغم أنَّ الموصل من المدن المحافظة. وكانت أمِّي المسلمة تقول لي إنَّني نصرانيَّة وإنَّ ديني يعفيني منها. لكنِّي رأيت نساء النصارى واليهود يلبسن العباءة عند خروجهن من البيت. أمَّا أنا فكنتُ أغطي رأسي في الكنيسة مثل جميع النساء، وليس مثل بنات هذا الزمان اللواتي يتقدمن لتناول القربان وهن بالبنطلون الضيق... أستغفر الله...

تنتاب الخاتون، فجأة، نوبة من الضحك تجعلها تهتزُّ ويحمرُّ وجهها، فتغطِّي عينيها الدامعتين بيديها وتحتجُّ على زمزم بدلال جميل:

– ولك ملعون... ماذا يفيدك هذا الكلام؟ ولك ليش تريد تصويري بالفيديو... قابل أنا تحيَّة كاريوكا؟

يوقف زمزم النور الأحمر وهو يتأفف من تمرُّدها عليه، ثم يعود إلى تكرار الكلام الذي قاله لها مئة مرَّة:

– هذا هو التاريخ يا خاتون، يا عيوني، وأنت جزء من تاريخ العراق

الحديث، وحكايتك شهادة مُهمَّة وذات مغزى، والمرء لا يقع على هذه التفاصيل في الكتب، ولا بدّ من حفظها من الاندثار. إنَّ حديثك لي هو عمل وطنيٌّ... ألست مواطنة عراقيَّة صالحة؟

تتمنّع الخاتون وهي تتطلّع في اتجاهي لكي أقف معها ضد زمزم، ولمَّا تجدني منصرفاً إلى المطالعة في القاموس المنجد، كتابي المفضَّل، تعاود الضحك كاشفة عن سنِّها الذهبيَّة في الجانب الأيسر من فمِها، ثم تتصنَّع الغضب وتقول:

- كافي تسجيل. خذ كاميرتك وانصرف يا ولد. مو عيب تلعب بيَّ وأنا في عمر بيبيتك؟

- ألعب بكِ؟ أنا ألعب بكِ يا خاتون؟ والله عيب هذا الكلام. أنت تاج راسي يا خالة، ومصدر حيٌّ من مصادر أطروحة الدكتوراه التي يجب أن أنتهي منها هذه السنة، وإلاّ قطعوا عنِّي فلوس البعثة وتركوني أموت من الجوع. هل تقبلين أن أموت من الجوع والعطش يا خاتون؟

- العطش! هذا ما تخاف منه يا ملعون... تخاف أن تنقطع عنك البيرة.

يقهقه الولد الألعبان الذي سمَّيناه حنقباز السماوة، تماشياً مع بهلواناته وخفَّة دمه الفطريَّة، ويقول للخاتون المفتونة به إن من كان اسمه زمزم، فلا خوف عليه من هكذا «طركاعة». وتستفزُّني المفردة الشعبية الجنوبيَّة فأبحث عنها في المنجد، في باب طرقع

يطرقع، وأقع على طرفس يطرفس بمعنى لبس الثياب الكثيرة، وعلى طرمح يطرمح بمعنى أطال، لكنني لا أجد ما أبحث عنه، فأعقد النيَّة على شراء قاموس للهجات الدارجة لكي أحلَّ لغز الطرقاعة. لكن أين أعثر في باريس على هكذا قاموس ؟

والفيلم ما زال يدور أمامي. وزمزم ما زال يبتكر شتى فنون التحايل على الخاتون لكي تعاود الحديث، ويؤكد لها أنَّ كلامها يساوي عشرات الكتب ويتفوَّق على المئات من المصادر الجامدة المملَّة، فأدخل على الخط وأغمز له بعيني:

– ألا تعرف دواءها يا شاطر ؟

يلقف زمزم المعنى الخبيء وتشرق ابتسامته السمراء فتضيء الحجرة التي زحفت عليها العتمة ونحن في أول المساء، فيقوم مسرعاً إلى المطبخ ويعود ممتشقاً قنينة داكنة من بنات الأصول، يرتاح لمرآها قلب الخاتون وتبرق عيناها وتنبسط ملامح وجهها السمين وتمدُّ يديها في اتجاه السعادة الآتية كمن يحاذر عليها من الضياع في مفترق ما .

يناولها زمزم القنينة بيد والفتَّاحة اللولبية باليد الأخرى لكي تتولى بنفسها تلك المهمة الأثيرة لديها. من يجرؤ على افتضاض زجاجات النبيذ غير الخاتون ؟

بعد الرشفة الثالثة يعود زر الكاميرا إلى الاشتعال وتنطلق بطلة الفيلم، تتحدَّث بكلِّ أريحيَّة، مؤدية دور حياتها:

– سمَّتني أمِّي بهذا الاسم وفاء لذكرى أبي الذي كان يحب السجَّاد

العجميَّ ويبحث عن النادر منه. ويبدو أنَّ علاقته بالسجَّاد لم تكن من نوع الولع العاديٍّ بالأشياء البديعة والثمينة. وقد أخبرتني شقيقتي أنَّ أبي المرحوم كان يمرُّ بلحظات انخطاف، فيخلع نعليه وينحني على السجَّادة القديمة يتلمَّسها براحة كفِّه ويشمُّ رائحة صوفها الذي وطئته آلاف الأقدام، ويمرر عليها صفحة خدِّه ثم يصيح: أمان!

ورغم أنِّي لم أر أمِّي التي جاءت بي إلى الدنيا، لكنَّ المرأة المسلمة التي ربَّتني روت لي أنَّها كانت بيضاء مثل الجُمَّار، حمراء الشعر مثل بنات أوربا، وذات أُبَّهة جعلت الكلَّ يناديها «الخاتون»، مع أنَّها قَدِمَت إلى الموصل كسيرة لا سند لها. والخاتون، كما تعلم، لقب يدل على الكثير من الاحترام، تَرِثُه البنات عن الأمهات فيصبحن، بدورهنَّ، خواتينَ في البيوت المفروشة بالسجَّاد، المؤثثة بخشب السيسم، والمحجوبة وراء ستائر القطيفة الثقيلة.

تتوقَّف الخاتون وتلتقط نفساً عميقاً تعقبه برشفة أنيقة من كأسها، وتشعر بالرضا وهي ترى أعيننا شاخصة إليها، مبهورة بروايتها، فتبتسم لنا من عليائها ابتسامة شحيحة متكبِّرة، وتأخذ رشفة أخرى وتواصل كلامها:

- عشتُ عزيزةً في بيت أم شيت، أمِّي المسلمة الطيِّبة التي تعرف الله ولا تُفَرِّق بين عباده، وكنت أفرش لها السجادة في مواعيد الصلاة وأصوم رمضان مع الأسرة كلِّها، لكنِّي لم أنسَ ديني وأصلي، ولا مأساة أهلي. ولما كبرتُ وبدأتُ أزور أختي الراهبة في الدير، دارت بيننا أحاديث طويلة. وعرفت منها أنَّ بيتنا في دير الزور كان

مفروشاً، أرضاً وجدراناً، بسجاجيد كثيرة، تركية وقوقازية وكردية، وكان أغلاها تلك التي يأتي بها التُجَّار من مدينة كاشان في إيران، لأنَّها الأبهى، وبها تُشبَّه الحسناء التي لا يقوى الزمان على حسنها، فيقال إنّها مثل «الزوليَّة الكاشان»، تزداد ألَقاً كلَّما تقدَّم العمر بها. و لمَّا جاءت أختي إلى الدنيا، سمَّاها أبي «كولفارانك»، أي الوردة الفرنسيَّة، وهي التسمية التي يطلقها العارفون بالسجَّاد على الأزهار المنقوشة فوق صفحات الكاشان و الكرمان و التبريز وكلِّ تلك النفائس التي تحيكها أنامل نساء وبنات وأولاد في سنِّ الورد. لكنَّ أبي لم يعش ليشهد ولادتي. وروت أمِّي لإحدى الجارات أنَّ المرحوم زارها في المنام، ليلة مجيئي إلى الدنيا، وأوصاها بأن تُسمِّيني «كاشانيَّة».

هل عرفتَ معنى اسمي يا زمزم يا ابني؟ وهل تجد كلامي معقولاً أم تخاريف عجائز؟ أنا لا أدري بمَ تنفعك هذه الحكايات المنتزعة من الدفاتر العتيقة، ولا ما يعنيه لك الكاشان وعشَّاق الكاشان... أنت الذي لم تعرف قدماك سوى ملمس بُسُط السماوة وموكيت باريس.

٥

تخلع عنّا الغربة أهالينا وتكسونا بأهل من غير دمائنا وإخوة لم تلدهم أمهاتنا.

تحرث الغربة ألسنتنا المزروعة باللغة الأم و تشتل فيها لغات جديدة نجاهد لكي نتفوّه بها.

تأخذ منّا الغربة ماضينا وتكبسه، مثلما تُكبس قطع الخيار والجزر وثوم العجم، في خابيات النسيان. وتترك للروائح اللاذعة أن تهبّ علينا، في أحايين غير معروفة، فنتلفَّتُ بحثاً، كأن عن شلوٍ ناقص من أشلائنا.

تنفض الغربة قلوبنا كما ينفض الحمّالون الأشدّاء أكوام السجاد في الشوارع العريضة المُعبَّدة، أوائل الربيع، فتزداد القلوب ثقلاً.

تحررنا الغربة من غبار الذكريات وذرّات المألوف، وتدخلنا إلى حمّام التخفُّف، فنخرج وقد انعجنَ الغبار وتكتّلَ وصار حصى يملأ منّا الجيوب.

لكنها، الغربة، إذ تُشفق علينا من هجمات الحنين، تسمح لنا، في خلسات مبهمة ، أن نغشَّ في امتحان الجَلَد والمكابرة، وأن نتمسَّك بزاد قليل مما جئنا به في حقائبنا، شرط ألاّ نخلخل النظام المتمدِّد، سعيداً، في جنباتها.

ووفق هذه القوانين، خلعت عني الغربة أهلي وأصدقاء شبابي، وانتزعت منِّي ملامح نجواي، وألبستني زمزم، وكاشانيَّة خاتون، وسوزان، وسارة ، وسراب... عزيزة روحي.

قدَّمني إليها جبرا إبراهيم جبرا في إحدى زياراته إلى باريس قائلاً إنها «عراقية حلوة، مثقفة، وحرَّة». ولذلك فإنَّه قرَّر أن يكتب عنها رواية ويسمِّيها باسمها. ولم أدرِ هل كان جبرا في معرض الجدِّ أم الهزل، لكن صديقه المغربي الباهي محمَّد التفت نحوي وقال بصوت رخيم وباللغة الفصحى:

– حذار من الاقتراب منها لأنها، عند ذاك، تختفي مثل السراب.

لم يترك عليَّ حضورها، في ذلك اللقاء الأول، سوى بعض الفضول وإحساس خفيف بالانتعاش، كأن يداً فتحت نافذة على حقل من الريحان في غرفة مختنقة بالأنفاس.

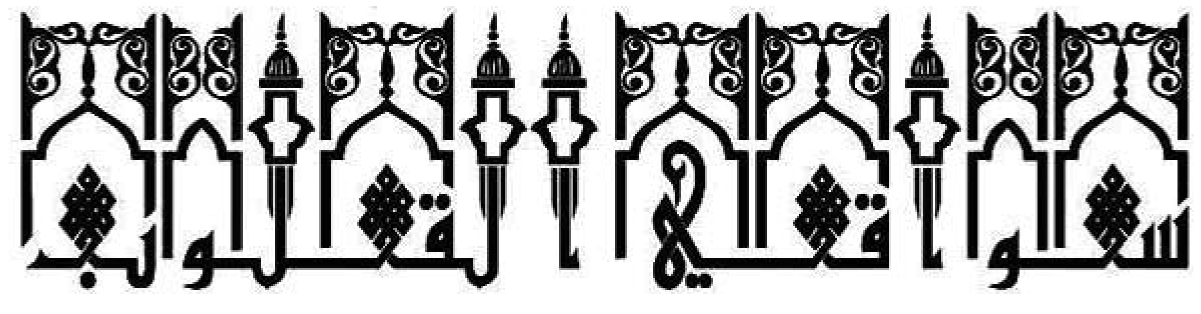
مرَّ التعارف الأول بدون تبعات، وجاء اللقاء الثاني بعد أكثر من شهرين، في آخر مكان يمكنني أن أتصور وجودها فيه.

كنتُ قد صعدتُ إلى شقَّة كاشانية خاتون التي تعلو شقَّتي، كعادتي في أغلب المساءات، فوجدتُ سراب هناك، جالسة في المقعد

الذي اعتدتُ أن أجلس عليه، مقابل النافذة الكبيرة المطلّة على بولفار «بلانكي»، تهزُّ رأسها طرباً وهي مغمضة العينين، تستمع إلى أغنية لزكيّة حمدان من جهاز التسجيل. أغنية لم أسمعها منذ أيام طفولتي، كانت عمّتي تؤديها في ساعات شجنها، ثم تبكي لألف سبب ولا سبب. وقد أدهشني أنّ الخاتون تحتفظ بذلك الشريط الذي لم أسمعه عندها من قبل. أم الضيفة هي التي جاءت به؟

ومرّةً أخرى أحسست أنّ نسمة ما تهفُّ في المكان، رغم أنّ النافذة كانت مقفلة. وجمدتُ في وقفتي وأنا بين الغبطة والحَرَج، غير قادر عن نزع نظرتي عنها ولا عن الصليب الذهبيّ الصغير الظاهر من فتحة قميصها. فلمّا فتحت عينيها، بعد لأي، لم يبدُ عليها أنّها استغربت وجودي، بل قامت بتثاقل كمن تغادر مغطس ماء دافئ، وقالت بصوت خفيض كاد ألّا يصلني:

- عفواً... أخذت مكانك.



٦

شلّني الارتباك طوال الأيام التي سبقت وصول ساري، ولولا تهوين الخاتون من الأمر وتعليقات زمزم الساخرة ووجود سراب اللطيف إلى جواري لتنصَّلتُ من الورطة كلِّها واعتذرت عن استقباله. لكنَّه ابن نجوى، وحيدها بين ثلاث بنيَّات، كما قالت لي، وهو فوق هذا مريض يحتاج إلى عملية عاجلة، فكيف أتهرَّب وقد اعتمدت عليَّ؟

لم يفارقني القلق. إذ بعد كل هذا العمر الذي أكلتني فيه نهارات الوحشة وليالي الشوق إلى نجوى، وبعد أن كنت أتدرَّب على نسيانها وحكٍّ صمغة اشتهائها من عروقي، ها هو ابنها الذي هو قطعة منها، يهبط عليَّ في أرض ابتعادي ويضعني، مجدداً، أمام الفشل الأفدح في حياتي.

سأنظر إليه وسأراها، وسيحدِّثني وسأسمعها، وسيروي لي خطط مستقبله فأتذكَّر خيبة ماضيَّ، وسأنكمش كمداً وأنا أتخيل لو أن الأمور أخذت مسراها الطبيعي، لكان هذا الرجل الصغير ابني...

ابن نجوى وابني.
كيف هي نجوى اليوم؟ وهل مرَّ الزمن رؤوفاً بطبق القيمر، أم عبث به مثلما تعبث الفِيَلَة في غرف البلُّور؟

كعادتها، تعاملت سراب مع خبر مجيء الضيف الطارئ بكثير من الهدوء والاستعداد للمساعدة. ولا شكَّ أنها أدركت فحوى تلك الصداقة القديمة التي تربطني بوالدة الشاب المريض القادم من بغداد. لكنها لم تسرف في الأسئلة، تماماً مثلما كانت ترجوني ألا أسرف في السؤال عن ماضيها.

- لا تجاملني بغيرة المراهقين، أرجوك، فأنا على حافة الأربعين وقد شاب شعري وما سواده إلاَّ من فضل «لوريال». لكن حبِّي لك لا شائبة فيه، وهو عميق بحيث يدفعني إلى أن أضع علاقاتي السابقة موضع الشكّ.

- لم أسمع امرأة عربية تتحدث عن علاقات سابقة لها... هكذا بالجملة!

- لا تجزع يا حبيبي، فالواحدة منَّا، نحن العربيات، تولد وتموت دون أن تعرف أكثر من رجل أو اثنين، إذا حالفها الحظ. و ما أكثر اللواتي تساقطت أسنانهنَّ دون أن تمنَّ عليهنَّ الحياة بشمٍّ عَرَق الرجل!

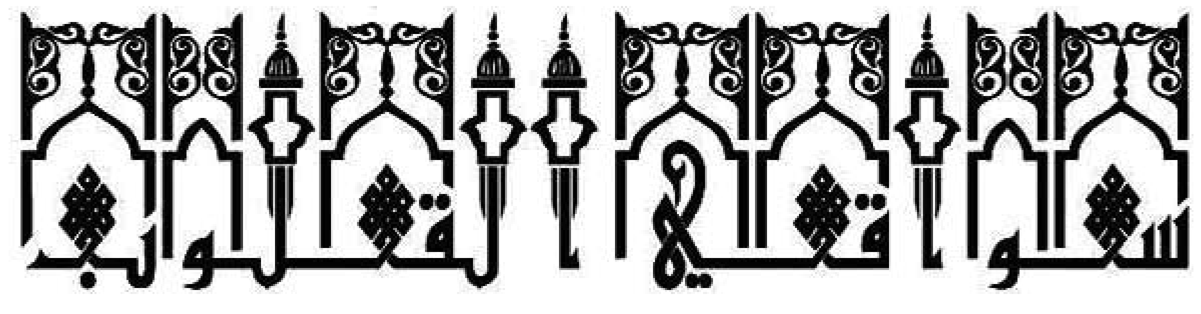
أردت أن أحدِّثها عن نجوى في أكثر من مناسبة. لكن الحكاية بدت لي أشبه بحكايات أهل الكهف وأنا أتحرّك مع سراب في فضاءات باريس

ونستمتع معاً بما تبذله لنا من فرص متجددة. وهي بدورها لم تكن تحب القصص البائدة، بل لمستُ لديها نفوراً غريباً من الماضي ومن الذكريات، كأنَّها تقلقها وتورثها ضيقاً في الصدر، فتقلب الصفحة بسرعة وتذهب إلى صحبة الفاكهة، وهي تمدُّ لي من غوايات كلامها أراجيح تذهب بعقلي إذ تقول:

- ستضحك عليَّ إذا قلت لك إن الفواكه أصحابي، والشجر أصحابي، وطيور السماء والغيم والمطر وخيوط الشمس وأقواس القزح... أصحابي الذين يحنُّون عليَّ ويحبونني مثلك ومثل زمزم والخاتون. ما رأيك لو نترك حزبنا الكئيب المترنِّح ونذهب إلى حزب الخضر؟

صفحة كتب

facebook.com/the.boooks



٧

يجب عليَّ أن أُقرَّ بأنني ملتُ إلى سراب قبل أن أعرف أنها كانت في وقت من الأوقات شيوعيّة، مثلي. وكم صدق جبرا حين وصفها بالمرأة الحُرَّة، فهي من ذلك النوع من البشر الذي يرفرف أعلى من الانتماءات الضيِّقة أو الطوائف الخانقة أو الأحزاب التي تحبس أعضاءها في قنٍّ دجاج. وإذا عدت إلى قاموس سنوات الخمسين والأوصاف التي أسبغتها الصحف على عبد الكريم قاسم فإنّني أستطيع وصف سراب بأنَّها مثل الزعيم، «فوق الميول والاتجاهات». أمّا إذا استعرتُ لغة الأغنيات البغدادية التي فيها من الوجد ما يقطِّع نياط القلوب، فسأقول عن سراب ما كان يقوله يوسف عمر لمحبوبه: «أنت دولة مستقلَّة... بالنجف لو بالعمارة... سودنوني هل نصارى».

وباستقلالها المكتمل غير المنقوص، شدّتني سراب إليها وداعبت

أوتاري، وتراً وتراً، فتقطَّعت آخر الخيوط التي بقيت تربطني بسوزان.

يخيَّل إلي أنَّ كل واحد منَّا، نحن الآتين إلى هذا البلد الفذّ، كانت له سوزانه الطيبة الحنون في مرحلة ما. فما أكثر السوزانات اللواتي أخذنَ بالأيدي وكنَّ عشيقات وصاحبات مأوى ومعلمات لغة وممرضات وحيطان مبكى ودليلات وطاعمات وكاسيات، لأجلٍ من الآجال.

بعد ذلك، يحدث أن تشتدّ الأعواد المنزوعة من أرضها، ويقف المنفيُّ المكسور على قدميه، ويروح يحاول التحليق بجناحيه، خارج الفضاء المرسوم له بدقَّة شديدة، فتطلُّ تجاذبات القوَّة برأسها من شقوق الاستسلام والطاعة، وتنتعش الغيرة المريضة، وتتحوّل السوزانات إلى شرطيَّات يترصَّدن الحبيب الغريب الذي ما عاد غريباً عن المدينة.

حكيت لسوزاني عن سوزان طه حسين، وعن سوزان فائق حسن، وعن سوزان إسماعيل الشيخلي، وكيف أنَّ كلَّ واحد من هؤلاء الموهوبين والمبدعين الكبار يدين إلى سوزانه بالكثير مما وصل إليه. لكنَّ سوزاني التي بدت متفهِّمة لاحتياجاتي، لم تتقبَّل، إلاَّ على مضض، صداقتي المتينة مع زمزم، رغم أنَّه كان بالغ اللطف معها.

لم تفهم رفيقتي فكرة أن واحدنا يحتاج إلى لقاء الآخر في أغلب أيام الأسبوع، وأننا إذا اجتمعنا فإنَّ الفرنسيَّة قد تكون لغة أحاديثنا، لكنَّ العربية، لا غيرها، ستكون لغة النكات والمعارك والشتائم والأغنيات.

وكان زمزم يحرص على أن يأتي بسوزانه معه، في أحايين كثيرة، لكي تُسلّي سوزاني عندما نكون نحن غارقين في نقاشاتنا السياسية التي لا فرامل تكبحها، أو في سهراتنا الطويلة التي كنا نلتمُّ فيها عند الخاتون.

عند انتهاء السهرة، كنت أنزل مع سوزان إلى شقّتنا وجفوة ملتبسة قائمة فيما بيننا. جفوة لا سبب مباشراً لها. فلا أقربها ولا تتقرّب مني، وننام مثل غريبين يشتركان في سرير ملغوم.

حاولت، بناء على نصيحة من الخاتون، أن أخرج من قوقعتي العراقيّة وأنانيّتي وأن أكرّس وقتاً أطول لسوزان. لكن القاطرة كانت قد حادت أصلاً عن السكّة، ولم تكن المشكلة في اللغة أو في قلّة الاهتمام، بل في شقاقات كثيرة، ما عادت العلاقة الجسديّة المحمومة كفيلة بترميمها، ولا عاد الجسد نفسه يستجيب للنداء.

بكت سوزان قهراً، ذات ليلة، وهي تصارحني بعجزها عن اقتحام عالمي النائي. قالت إنّ ضحكي المستمر الأبله على نكات زمزم يوتّر أعصابها ويعزلها في قفص مثل قرد مغمض العينين لا يفقه ما يدور حوله. ولم أحاول أن أهدّئ من روعها، كعادتي عندما تداهمها نوبات البكاء وهي سكرى، و اكتفيت بأن قلت ببرود:

- هذه مشكلتك.

استيقظتُ في الصباح التالي فوجدت ورقة منها على رفّ المدفأة

تخبرني بأنَّ من الأفضل لكلينا أن نتباعد لفترة من الوقت. ولم أجد حاجياتها في الشقّة.

لقد هجرتني.

وكرهتُ نفسي، لحظتذاك، لأنني لم أُصدَم لذهابها، بل لم أحزن أو أكتئب. وبدل الحزن زحف نمل الارتياح على صدري وغمرني حتى أذنيَّ، وشعرت بالعرفان لأناقة تصرفها إذ وفَّرت عليَّ مشهد الرحيل بعد أربع سنوات من الحياة المشتركة.

سرتُ نحو زاوية المطبخ وملأتُ القوري بالماء في حركة روتينيَّة تتلبَّسني حالما أصحو في الصباح، ثم قرَّرتُ، قبل أن أصبَّ كوب الشاي، أن أعود إلى النوم في فراش صار لي وحدي.

٨

لم أفكّر أن تحلّ سرابٌ محلّ سوزان.

أعرف أن لا امرأة تحلُّ محلّ أخرى. غير أن ارتياحي المبكّر لغياب سوزان انكشف عن فراغ ذي مخرز يَخِزُني في أماكن موجعة من جسدي.

كنت أذهب لانتظارها، عندما يعن لي، أمام المكتب الذي تعمل فيه، فنسير في جادة «بوان كاريه» ونشتري علب البيرة المثلجة و ننزل إلى حدائق «تروكاديرو» ونتمدد على العشب مثل السيّاح ونحن نتبادل عبارات قلائل يقطعها صمت هلامي. وكان يحدث أن تقرِّب وجهها منِّي فأقبِّلها بخفَّة على حواف الشفتين المرطَّبتين بالبيرة، وكأنِّي أحاذر الانغماس فيما هو أبعد. أو يحدث أن نتبادل القبلات التقليدية الوديَّة الأربع ... قبل أن نفترق في محطة المترو.

وذهبت إليها ذات مساء، بلا موعد، في الغرفة التي كانت قد احتفظتْ بها وواصلتْ تسديد إيجارها وهي معي. واستقبلتني بحنان وببعض السرور، وتبادلنا بضع عبارات عاديَّة وشربنا بقية من النبيذ، ثم انتقلنا

إلى السرير وكأنه المكان الطبيعي لنا، وغَرَفنا من لذَّة نعرف مكامنها، إذ رمينا الخرائط وحفظنا مفاتيح جسدينا. أدير فتصرُ أقفالها قبل أن تتفتَّح بواباتها، وتدير فيطير صوابي.

لكنّنا، ونحن نفكُ الاشتباك ونهدأ من اللهاث المحموم، عدنا وتعانقنا بقوَّة مثل رفيقين متواطئين يعرفان أن الشوط انتهى وأنهما يلعبان في الوقت الضائع. ولعلّي شممت دمعة على كتفي، أو لعلّها كانت رائحة النبيذ، وقمت لأغتسل وأخرج بدون وداع لا طاقة لي عليه.

وكانت تلك رقصتي الأخيرة مع سوزان.

٩

لم تعد كاميرا زمزم تخيف الخاتون، بل راحت تثير شهيَّتها للكلام واستعادة أحداث غريبة وأسماء عجيبة لأناس رحلوا وصارت عظامهم مكاحل. وقد أخذت ذكرياتها تشدُّنا جميعاً فلم نعد نفوِّت مواعيد التسجيل.

تغيَّر إيقاع حياتها منذ أن تسللنا إلى عزلتها وجعلنا منها خيمة لنا وسقفاً لجماعتنا الصغيرة. وكانت، من قبل، تنصب عقارب أيَّامها على صباحات السبت التي تقضيها في أسواق الأنتيكا، وصباحات الأحد التي تذهب فيها لحضور القداس في كنيسة الأرمن القريبة من شارع فرانسوا الأول. ثم تعرَّفت علينا فارتبكت ساعاتها وضاع جدولها الأسبوعي.

أحبَّت الخاتون سهراتنا وفتحت بيتها لنا وصارت تعدُّ لتلك السهرات عدَّتها وتلبس فساتين نامت طويلاً في خزائنها. كانت تفرش لنا المائدة بما لذَّ وطاب من مازات أرمنية تجيد تحضيرها، أو بلحوم مقدَّدة

وأنواع فخمة من الزيتون تشتريها من عند «رافي»، ونتكفَّل نحن بالنبيذ، إذا سمحت الحال.

تصل سراب إلى شقَّة الخاتون قبل الجميع وتروح تساعدها في إعداد العشاء، وأنضمُّ إليهما بعد نشرة أخبار الثامنة، صاعداً من شقَّتي التحتانية، مشتاقاً لحبيبتي. ويكون زمزم آخر من يطرق الباب إذ يأتي بعد أن يؤدي طقسه اليوميَّ في مقهى «الأوديون» محتسياً تعيينه من البيرة، فيتوجَّه إلى المرحاض مباشرة قبل أن يقول السلام عليكم.

ثم تدور الكاميرا و يبدأ الفيلم:

- رآني فيليب وأنا راكعة أصلِّي التسعاوية أمام تمثال القديسة تيريزا في كنيسة أمِّ الأحزان. كنا في خميس الفصح، وغطاء الدانتيلا الأبيض على رأسي يزيد من بهائي و يطوِّبني ملاكة في ثياب عرسها. وقف أمامي متسمِّراً فارتبكتُ وأخطأتُ في كلمات «أبانا الذي...»، ورحت أعتصر حبَّات مسبحتي وأبادله نظرة بنظرة، لا من قلَّة في الحياء وإنَّما لأنني لم أرَ من قبل رجلاً بهذه القيافة، كل ما عليه أبيض، من قبعة الكتَّان التي بين يديه إلى حذائه الروغان. كأنَّه عريسي الذي أرسلته شفيعتي القديسة تيريزا، مخصوصاً لي.

جاء فيليب إلى الموصل دارساً لآثار نمرود ونينوى. وكان له راهب من أقاربه في دير الآباء الدومينيكان، وقد عرفت منه، فيما بعد، أنَّه كان يميل إلى اعتزال الدنيا ودخول سلك الرهبنة، مثل قريبه، لكن شغفه بالحضارات القديمة جعله يتريَّث، وراح يتعلّم اللغة العربية

على يد الأب جان فيِّيه، عالم السريانيات الفرنسي المعروف الذي كان يتكلَّم العربية باللهجة الموصليّة. ألم تسمعي به يا سراب؟ لكن كل المشاريع الروحانية طارت من رأس فيليب بعدما رآني.

أمضى المسكين نهار الجمعة العظيمة كلَّه في الكنيسة، متَّخذاً له مجلساً على مصطبة قرب الباب، وعينه على المدخل لا على المذبح. فلما وصلتُ مرتدية فستاناً حليبياً ومتشحة بالخمار الأسود، هبَّ واقفاً وكأن الروح القدس نزل عليه. أما أنا، فقد تعثرت بعتبة الباب من وهج نظراته، لكنَّني بادلته إيَّاها ولم أغضّ الطرف، فقد أردت أن أشبع من رؤية ذلك الشبح الأبيض البديع قبل أن يختفي.

ولمَّا بدأت مسيرة القساوسة على درب الصليب، ومن ورائهم الشمامسة والأولاد الحاملو المباخر والراهبات المنشدات التراتيل والنساء القارعات الصدور بلميم الأنامل، الغارقات في الأدعية والدموع، اندس الشبح الأبيض بين الصفوف مقترباً منِّي، حتى إذا حاذاني ولمس كتفه كتفي، همس يسألني: «ما اسمك؟». وبلعت ريقي وأجبتُ من بين أسناني: «كاشانية». وردّد ورائي مبهوراً «كاشانية... كاشانية»، وابتسم لي فابتسمتُ له، في منأى عن عينيْ يسوع المعذَّب المرفوع على الصليب.

في المساء نفسه، سأل عنِّي طبَّاخة الدير. ماذا كان اسمها يا ربِّي؟ هيلانة!

سأل عنِّي هيلانة، وكانت تعرفني بالوجه وتجهل أصلي وفصلي فخرجَت من الكنيسة ورائي بعد قدَّاس سبت النور واتّبعتني سائرة

في أزقّة الموصل القديمة حتى دخولي البيت. بعد ذلك سألتْ امرأة من الجيران فقيل لها إنّني بنت أمّ شيت، أرملة محمود الدبّاغ. وحال سماعها الاسم، غصّت هيلانة بباقي الأسئلة وعادت مسرعة إلى الدير لتقول لمن أرسلها: «هذه البنت ليست من نصيبك». ولمّا ألحّ فيليب في السؤال ردّت عليه أنّ المسلمة حرام على النصراني. وروت له حكايات الكثيرات من نساء المسلمين اللواتي يقصدن الكنيسة لتقديم النذور للعذراء مريم، أمّ عيسى، التي يسمّونها مريمانة.

لكنّ النصيب نصيب يا ابني. ومن أرسلته السماء من تولوز إلى الموصل، قبل نصف قرن من هذا الزمان، لكي يصادف خالتك كاشانيّة، فلن تعيده السماء خائباً.

١٠

تملَّكني حبّ سراب حتى حوَّلني إلى إنسان سعيد ومجدٍ. وعكفتُ على ترجمة مسرحية لمارغريت دوراس فانتهيت منها في وقت قياسي، وأرسلتها لتنشر على حلقات في صحيفة كويتية. و لن يستطيع أحد أن يسبر عمق رضاي عن نفسي بعد ذلك الإنجاز إلاّ من مرَّ بسنوات من التعطّل والفراغ، وبلغ به الأمر حدَّ الشك في فحوى مجيئه إلى الدنيا. بل إنَّني، في فورة من فورات حماستي التي أعقبت الترجمة، شرعت في كتابة رواية وجعلت من الختون بطلة لها. وكنت أذهب في الصباحات الباردة إلى مقهى «كلوني» في بولفار السان ميشيل، وأصعد إلى الطابق العلوي، مأوى المتأدبين و«أصحاب اللوثات الفكرية» كما يسمّيهم زمزم، وأجلس بالساعات متمخِّضاً كي ألدَ صفحتين أو ثلاثاً، أقرأها على مسمع سراب عند العشيَّة.

لم أكن أعرف عن سراب سوى أنَّها من الكرّادة الشرقيَّة، الحي البغدادي الذي كنت قد ولدت فيه أيضاً. وكنا انتقلنا إلى حيٍّ

اليرموك ، بعد وفاة والدي، للإقامة في بيت عمَّتي التي كانت متزوِّجة من ضابط في الجيش. كان بيتاً واسعاً ذا حديقة تعلوها شرفة صغيرة تطلُّ على الشارع، من تلك البيوت الجديدة التي بناها عبد الكريم قاسم للضباط. لكنِّي بقيت أحنّ إلى حيِّنا القديم و إلى رفاقي فيه وإلى السدَّة الترابيَّة التي كنا نجتازها، في خفية عن أعين الأمهات، لكي نسبح في دجلة .

وإذاً، فقد كانت سراب ابنة شارع العطَّار، أبهى شوارع الكرَّادة وأقربها إلى مدرسة الحكمة التي تعلَّمتُ فيها القراءة والحساب على يد الست فكتوريا. وكان طولي لا يزيد على الشبرين حين حاولت أن أقود التلاميذ في مظاهرة نسيت مناسبتها ولم أعد أذكر منها سوى ذلك الهتاف الذي ألهب حنجرتي وأنا طفل: «سبع بسامير بتوثيتي والعايف دمَّه يتقدَّم!». وقد تقدم نحوي فرَّاش المدرسة وأعادني إلى الصَّف بركلة موجعة من قدمه... شقَّت مؤخرتي.

هل كانت تلك الجيرة القديمة، بيني وبين سراب، كافية لأن تقيم بيننا القواسم المشتركة التي كشفتها لنا ثرثراتنا الطويلة؟

اكتشفنا أنَّنا كنا نعرف، معاً، بيت المغنِّية منيرة الهوزوز ، في شارع الهندي، الذي أقامت فيه خليلة لشاعر معروف. كما كنا نتردد، في الفترة ذاتها، على مخزن رضا علوان، على الشارع الرئيسي للكرادة، لشراء الدفاتر والأقلام، ونطارد الممثِّل فوزي محسن الأمين لكي يصرخ فينا صرخة مسرحيَّة من أحد أدوار يوسف وهبي فنهرب، مذعورين، إلى بيوتنا.

وفي حين أني غادرت الحيَّ في سنٍّ مبكرة، فقد ظلَّت سراب فيه ودخلت الثانوية الشرقية للبنات، وأحبَّت درس التاريخ بفضل الست نظيمة، وتعلَّمت كيف تسير مستقيمة الظهر، لا تتمايل يمنة ويسرة، وفقاً لأوامر لميعة الأورفلي، أشهر مديرات المدارس في بغداد، آنذاك، وأكثرهنَّ حزماً. وفهمت من سراب أنها درست، بعد الثانوية، في معهد خاص للُغات ثم سافرت إلى بيروت لتلتحق بالجامعة الأميركية، لكن الحرب الأهليَّة أعادتها إلى بغداد قبل أن تنهي الدراسة.

عادت غاوية للسياسة، ميّالة إلى اليسار الثوري، لاعبة بالنار التي ستكوي أصابعها بلا رحمة، حسبما روت لي في لحظة من لحظات بوحها النادر.

كيف اكتوت؟ وبأيٍّ نار؟

حاولت أن أعرف فلم تتجاوب أو تفصح عن المزيد، كما تهرَّبت من الحديث عن حياتها الاجتماعية بعد عودتها من بيروت، ولخَّصت الأمور بأنها هربت إلى الخارج بعد فترة، عن طريق الشمال، واستقرَّت في باريس لاجئة منزوعة عن ناسها، محكومة بالكآبة، إلى أن وجدت عملاً كمترجمة، بالساعة، في مكتب لتصديق الوثائق الرسميَّة يديره لبنانيّ.

كيف يكون دربي قد حاذى درب سراب، في أكثر من منعطف، دون أن يتلاقيا؟ وما علاقتها بجبرا والباهي، وهي من ضفَّة وهما من أخرى؟

دخلنا معاً، ذات مساء صيفيٍّ رائق، لمشاهدة فيلم سوفياتيٍّ لكليموف في سينما «كوزموز». ولم أتوقع أن أراها تتأثر إلى ذلك الحد بحيث تبكي وتحمرُّ عيناها. وكانت القصّة عن مجموعة من العجائز اللواتي رفضن الانصياع لأوامر الحكومة بإخلاء بيوتهن والجلاء عن جزيرة مهدَّدة بالغرق ... قبل أن تبتلعهن مياه البحر.

وفي حين يهرع الأطفال والشباب إلى البواخر التي أرسلتها الحكومة لتسفيرهم، ويلحق بهم الرجال، فإنَّ النساء المتقدمات في السن رفضن أن يُصدِّقن أنَّ وراء البحر أرضاً تصلح لبناء بيت جديد.

هل بقي في العمر متَّسع لترف مثل هذا؟

أخيراً، تتمكَّن بعثة الحكومة من إقناع إحدى العجائز بالرحيل، فتوافق شرط أن يُسمح لها بوداع البيت الذي تزوَّجت فيه وأنجبت أبناءها السبعة. وتدوم مهلة الوداع نهاراً بكامله، تمضيه المرأة التي احدودب ظهرها في كنس أرضية البيت، وتنظيف الحجرات، وتلميع الخشب، ونفض الستائر، ووضع المفارش الخاصَّة بالأعياد، وسقي الحديقة، ونثر الحبوب للطيور. ولمَّا تنتهي من عملها، تضيء كل أنوار البيت، وتقفل وراءها الباب، وتضع المفتاح في المخبأ الذي يعرفه كلُّ أفراد العائلة، وتمضي بعد ذلك إلى السفينة التي تغادر بآخر الراحلين.

ثم يُخيِّم ضباب كثيف على المكان، وتحلُّ العتمة، ويطلع الفجر، بعد ذلك، على أمواج تتلاطم... ولا جزيرة.

خرجنا من السينما وسرنا وكأننا في جنازة. لم نتبادل كلمة. ولمَّا

بلغنا زقاقاً هادئاً، مدَّت سراب يدها وتشبثت بيدي كأنها تخاف الرحيل وحيدة وسط اللجج الغريبة، حيث لا بيت مضاء ينتظرها في أيّ مكان .

بدأت علاقتنا الحميمة بدون خطط هجوميَّة من جانبي أو تمنُّع زائف من جانبها. كنا خارجين من عند الخاتون، بعد سهرة استماع لتسجيلات سليمة باشا، وهي واحدة من تلك الجلسات التي اتفقنا على تسميتها «حمَّامات الحنين». وبدل أن أصحبها إلى الطابق الأرضيّ وأسير معها، كالعادة، حتى موقف سيارتها، توقفنا على الدرج، عند باب شقَّتي، ودخلنا دون اتفاق مسبق وكأنَّ جرساً داخلياً دق لدى كل منَّا وأذنَ لنا بالامتزاج. وأشهد أنهّا امتزجت معي، منذ المرَّة الأولى، في طقس خلاَّب ما زلت عاجزاً عن فكِّ شفرته، حتى وأنا منكبٌ الآن على هذه الأوراق، أروي الحكاية بعد سنوات من غيابها.
وبفضل سراب عرفت كيف تغدو الحواسُّ كمنجات، وحاذيت السرَّ الذي يُحيل ممارسة الحبِّ تمريناً على فعل الخلق. ومعها بلغت ضفاف بحيرات لم أتيقَّن يوماً أنَّها كامنة في خبايا جسدي. جسدي الغشيم الذي توهَّمت، من قبل، أنني استكشفته كهفاً كهفاً وخبرت مجاهله وشلالاته ومياهه الجوفية.
كانت تستلقي، تحتي، مطوِّحة بذراعيها على امتدادهما إلى الخلف، مُتجاوزة حدود الوسادة والسرير، فارشة لي جنَّات لم أوعد بها. وبخلاف صمتها الذي يغلب عليها في المجالس، فإنَّها كانت تتدفَّق

كلاماً كالبلابل أثناء الحب، وتستذكر معلقات جاهلية وخطباً تروتسكية وشُتيمات لطيفة ومقامات عصمليَّة ومزامير توراتية وأغنيات من الزمن البائد.

وأحياناً، كان يصدر منها خليط من ولولات غير مفهومة، مثل حداء الندَّابات أو وَهوَهات الدراويش، أحاول أن أستذكر شيئاً من كلماتها، فيما بعد، لكنها تهرب من طرف لساني مثل الأحلام التي تتبخَّر من الرؤوس عند الاستيقاظ.

أمَّا إذا مكَّنتُها منّي وارتاحت على صهوتي، فعند ذاك يبدأ مهرجانها الخرافيُّ المُدوِّخ، وتنبثق براكينها وضحكاتها وألعابها الناريَّة، وتُريني من كوامنها الجوانيَّة ما يجعلني أنصهر فيها وأرشف، حتى الثمالة، ماءها وعَرَقَها وكلَّ ما ينزُّ منها، وألعق حتى الخصلات التي تتدلى من شعرها ملتصقة بوجهي.

ومن شدَّة استغراقها في تقطير رحيق لذَّتها، كانت تراودني خشية غامضة من احتمال ارتحالها إلى منطقة حسيَّة قصيَّة، بعيدة عنِّي، فلا أدري كيف أجاريها. لكنَّها، في وهلة ما من وهلات الحضور والغياب، كانت تشقُّ تسبيلة جفنيها شقاً ناعساً يكفي لأن ألمح الدعوة في نظرتها، فألتحق بها إلى رَبوَتها وأنا مطمئن إلى سُكناي إليها وسُكناها إليَّ.

هل هو الغرام الذي يأخذ بيد الشهوة ويقودها، خطوة خطوة، إلى

تخوم تلك الكفاية التي ما بعدها كفاية؟ أم هي الأُلفة بيني وبين عراقيَّة من بنات جلدتي، كرَّادية أفهم إشاراتها وتفهم إشاراتي، توصلني إلى تلك اللذة المطمئنة المصفَّاة والمصطفاة للممسوسين من البشر فحسب، أحباب النخيل والزعفران؟

أسألها ونحن ممدَّدان وأعيننا الأربع مشرعة على سقف الغرفة:

- من دلَّكِ على غابتي يا بنت الناس ؟

وأسمع صوت البلبل يغنِّي في شبه العتمة الذي يلفُّنا بردائه :

- أنا قلبي دلي.. لي لي.. ليــلي...

كيف يمكنني، بعد كلِّ ذاك الجموح، أن أستقبل غراب البين الذي نقر، ذات نهار أجرب ، على شبَّاك سعادتي؟

ما زلت، حتى الساعة، قاصراً عن إدراك ما جرى لسراب من اعتلال بعد أشهر قصار من امتزاجنا. إنَّ الجسد العبقريَّ في بذل الحب لا يمكن إلاَّ أن يكون محصَّناً ضد الداء، محروساً بالشموس وماء الفرات وتمائم العافية. هكذا كنت أفهم الأشياء وأروز المحن والمسرَّات وأفرز زفرة الهمِّ عن نَفَس الصعداء كما تُفرز حبَّات الرز العنبر عن الزؤان.

كيف اختلطت الأمور بهذه السرعة؟ أم هو الغرام المُدوِّخ فتك بها وامتصَّ رحيق عسلها، مثلي، حتى الثمالة؟

قلت لها، مفتوناً بتوارد الخواطر، وهي داخلة عليَّ، ذات ضحى، وبيدها باقة من نرجس الربيع ، إنني جئت لها بباقة من الزهر ذاته.

فتأملت باقتها الملفوفة بورق بنفسجيٍّ ثم باقتي الموضوعة في المزهريَّة وردَّت على ملاحظتي مستعيرة المثل الشعبي الذي يفكفك براغي الحبَّابين و الحبَّابات:

- ألا تعرف أنَّ القلوب سواقٍ... تتناءى ثم تتلاقى وتصبُّ في مجرى واحد؟

١١

تأخرت الطائرة الآتية من بغداد أكثر من ساعة. وزاد الانتظار من توتُّري وضيقي، خصوصاً أننا كنا في أول الصيف و قد ابتلَّت، بعرق راحتي، الورقة البيضاء التي كنت أحملها، مثل الأدلَّة السياحيين، وعليها كتبت بخطِّي الرديء اسم ساري. كيف يكون شكله؟ وهل أخذ عن أمه من الملامح ما يكفي لأن يؤرجحني، مثل رقَّاص الساعة، بين الماضي والحاضر؟

ماذا قالت له نجوى عنِّي... يا ترى؟

لم أكن قد حسمت أمري حول أسلوب استقباله ولا ما سأفعل إذا ارتمى في أحضاني وناداني «عمِّي».

هل يكفي أن أمدَّ له يدي مصافحاً، باعتبار أنَّه غريب لا تربطه بي قرابة ولم أره من قبل؟ وكيف يكون غريباً وهو الطالع من بطن الحبيبة الأولى؟

ملعون أبوك يا زمزم لأنك تحجَّجت بألف انشغال كي تتهرب من

مرافقتي في هذه المهمَّة العسيرة، وتباً لشلاَّل الأسئلة المنهمر فوق رأسي ولتلك الطائرة التي لا تصل، بتاتاً، في موعدها. إن الزحام يتآمر مع الحرِّ الشديد ضدِّي، و لا ينفع أن أفتح جريدة أزجي بها الوقت لأن عينيَّ لا تفارقان لوحة الإعلان عن الطائرات التي تحطّ أو التي تتأخر.

هكذا أنت يا نجوى، عذاب من قبل و عذاب من بعد.

ومرت ساعة أخرى، وأنا مصلوب أمام بوابة خروج المسافرين، أتابع ضلفتيها وهما تنفلقان آلياً كلما اقترب منها أحدهم. إذّاك تخرج أعين المنتظرين من محاجرها وتندسّ في الفتحة البخيلة للبوابة وهي تبحث ملهوفة، نافدة الصبر، عن مسافرها الذي تأخر.

... إلى أن رأيت شاباً طويل الشعر، يحمل حقيبة جلديَّة صفراء على كتفه، يدور بعينيه بين المستقبلين ثم يتوجه نحوي وهو يبتسم بارتباك. وتحركت قاطعاً الخطوتين اللتين تفصلاني عنه وشيء مثل الحمَّى يعرقلني ويؤجِّج دمي.

- ساري؟

اتسعت ابتسامته فمددت يدي لمصافحته و أنا أربت بالكفِّ الأخرى على كتفه لاحتواء الحرج المتبادل، وتمتمت بالعبارات المعهودة أحيِّيه على سلامة الوصول وأرجو أن لم تكن السفرة مرهقة. ثم هممت أن أتناول منه الحقيبة لكنه أصرَّ على استبقائها، وراح يعتذر، بصوت ناعم، عن التعب الذي سبَّبه لي تأخُّر الطائرة. وشعرت

بالإشفاق عليه وأنا أراه في حال من الذهول لكلٍّ تلك الأصوات والسحنات والبشر السائرين بحقائبهم وعرباتهم... إنَّها المرَّة الأولى التي يغادر فيها بغداد.

- تعال معي لنأتي ببقية أغراضك...

- هذا كل ما معي.

وتعجبت لأنَّ ساري لم يأت معه بحقيبة أُخرى، وسرنا في اتجاه الخروج، فاستأذن أن يمرَّ على دورة المياه، ووقفت أنتظره عند بابها وطال انتظاري. ولما خرج وجدته شخصاً لا يشبه ذاك الذي دخل. ولولا أنَّه كان يحمل الحقيبة الصفراء ذاتها التي يصعب العثور على مثيل لها، لقلتُ إنَّ الحمَّى تمكَّنت منِّي وزلزلت يقيني.

١٢

يبدو أنَّ الهموم تهجم على الواحد منّا، فعلاً، مرَّة واحدة. وأنَّ حزناً مفرداً يتكفَّل بجرٍّ أحزان بالجملة.

ففي صيفٍ ذلك العام تدهورت صحة سراب، وركب الخاتون مزاجٌ سوداوي، وشطبوا زمزم من لائحة الطلبة المبعوثين للدراسة، أو «رقّنوا قيده» كما كان يحلو له أن يسخر من اللغة الرسمية لدواوين الحكومة. بعد ذلك أنذروا «المومأ إليه» بأنَّ عليه أن يعود إلى «القطر» خلال مدَّة أقصاها شهران لأنه استوفى الفترة المقررة للدراسة.

أمَّا أنا، فقد تباعدت الهوَّة بيني وبين رفاقي حتى صرت أتحاشى تجمعاتهم وأتفادى مكالماتهم التي لا أجد من جدوى لها. لم أعد قادراً على الدوران في دوامة التبريرات والتمويه والاستمرار في هواية إغماض الأعين.

ومقابل هربي منهم، كنت أسعى إلى تلك الأحاديث التي تجمعني

وزمزم على مائدة الشراب، عندما نروح نتبارى في كشف عورات حزبينا، على طريقة ما كان أولاد القحاب يتبجحون بتسميته «النقد الذاتي». و لعلّ تلك الأمسيات الفريدة في صدقها هي التي ربطتني بمزيد من العُرى مع هذا الولد الجنوبيّ ذي المزاج المتفجّر، وفيها اكتملت أمامنا بانوراما المأساة التي تمزّق وطننا... وطننا الذي كان بيت الأمان يُدعى لكنّنا جعلنا منه مغارة للّصوص.

ونحن الذين كنّا نسخر من الخاتون لأنها ما زالت تسمّي نوري السعيد «نوري باشا»... وتمدّ ياء نوري تأكيداً لفخامة الاسم... كم نشعر بخفّة العقل، بل بقلّة التجربة، لأننا لم نحترم الرجال الذين أبلوا خيراً مما أبلينا وجاهدوا لكي يبنوا لنا دولة آمنة، في حين لم يجلب جيلنا غير البلاوى والعنعنات.

حتى عظام سراب، أليفة الفاختة والجمّار وأزهار الرازقي، كانت قد طُحنت في أحد دهاليز الوطن الذي «مدّ على الأفق جناحا»، وتناوب أربعة مناويك على اغتصابها حتى أغرق النزف أرض غرفة التوقيف.

سمعت ذلك منها وهي تحتضر وتسلّمني تمائم العذاب المخبأة تحت جلدها، وكأنّها كانت تستدين من العمر سويعات إضافية لكي تصارحني بأنّ اسمها الحقيقي هو روزا سمعان، وأن سراب هو الاسم الحركي المكتوب في جواز سفر مزوّر غادرت به العراق عن طريق الكويت.

كان اسم حبيبتي روزا. وقد باحت به لأن لا وصيّة عندها ولا أمجاد

تخلّفها للآتين. أمّا أنا فلم أقبل أن أصدّق أنّها ستختفي مثلما كان الباهي قد حذّرني، في نبوءة عجيبة منه، يوم قال إنّها مثل السراب... تنأى عمّن يقترب منها.

رفضتُ أن أصدّق وشككت في تشخيص الطبيب الذي قال إنّ الداء قد تعتّق في صدرها واستفحل في أحشائها وما عاد ينفع معه علاج. وتعجّب ذلك الطبيب كيف أنّها كانت تواصل التنفّس بمعجزة، ولم تشتكِ من ألم من قبل، وأعاد ترديد العبارة وهو يهزّ رأسه حائرا. فإذا كانت هناك، بعد، معجزات يا ربّ السماء... فَلِمَ لا تريني عضلاتك!؟

صاحت الخاتون بي وهي تستغفر الله مرّة ومرّتين:

- لا تكفر يا ابني!

- وماذا أفعل يا أمّي إن لم أكفر في مثل هذي الساعة؟

- إذهب وتزوّجها.

مسحتُ وجهي بيديّ وتطلّعت نحو الخاتون فرأيت الحكمة السومرية ماثلة على وجهها الأرمنيّ المتغضّن.

- ماذا تقولين؟

- أقول لك رح وتزوّج بنت الأوادم الراقدة في المستشفى، ولتذهب لملاقاة ربّها طاهرة من وسخ الدنيا.

حتّى أنت يا خاتون؟

أويلاخ لو تعرفين كم أنّ «وسخ الدنيا» هذا الذي تتكلمين عنه قد طهّرني وطهّرها!

... وعملت بالنصيحة الكاشانية. وفي غرفة علوية بقسم الأمراض السرطانية من مشفى «فيل جويف»، بحضور الختون وزمزم وساري والممرضة المناوبة، عقدت قراني على سراب، أو روزا، في مراسم اخترعناها من وحي حالتنا. وأعطتني الختون خاتماً قديماً مرّرتُه في خنصر المرأة التي ذاب جسدها تحت الشراشف وصار إصبعها مثل الشمع، وقبّلتها في عينيها الغارقتين بندى السعادة والعرفان، لأن شفتيها كانتا غائبتين وراء الأنابيب التي لم يعد منها طائل، وتذوّقت ملح دمعها الساخن الذي لا يشابه برودة جسمها، ثم فتحنا قنينة الشامبانيا التقليدية دون أن تنداح على ألسنتنا الأنخاب أو التمنّيات الزائفة، وأصرّ زمزم على ترديد الهوسة الشعبيّة «شايف خير ومستاهلها»، فخرجت من فمه مثل بصقة قصيرة المدى استقرّت على زيقه، بينما كان ساري يدير ظهره ويواجه الحائط ويمسح دموعه بمنديل مطرّز مثل مراهقة مصون.

ولما انصرفوا بدون وداعات أو كثير جلبة، جلست ساهراً عند فراش سراب حتى أسلمت الروح قبل الفجر بقليل، فأغمضت عينيّ البليلتين وغفوت متكئاً على جسد زوجتي النحيل المغطى بشرشف سماوي ممهور بختم مستشفيات باريس ومكوي جيداً... كما يليق بثوب عروس.

١٣

منذ خرج ساري من دورة المياه في المطار متنكراً في ثياب امرأة وأنا غير قادر على استيعاب الهديَّة المفخخة التي أرسلتها لي نجوى.
قال لي، ونحن في السيارة، كلاماً لم يدخل عقلي، لكنِّي كنت مشغولاً، وقتها، بقلقي على سراب وهي تعاني من سكرات الداء القاتل، وغير مستعدٍّ لفتح شرخ آخر في رأسي... ليس بتلك السرعة.

وصلنا الشقَّة. وتركت ساري يرتاح في غرفة نومي إذ كنت أُمضي لياليَّ عند سراب. ووقفت أدخِّن في النافذة المطلَّة على البولفار الذي أعطى اسمه لفيلم فرنسيّ شهير.

كنت أُحب «بولفار بلانكي» وأتمشى كثيراً على رصيفه الواسع الذي يقودني إلى ساحة إيطاليا. ومنها أنحدر إلى الحي الصيني لكي ألبِّي طلبات الخاتون من اللوازم الشرقية التي لا يستقيم مطبخها من

دونها. باميا خضراء وزنجبيل وباذنجان في حجم الكشتبان، لزوم «الشيخ محشي »، و«نومي بصرة» وسمك زبيدي... إي والله زبيدي !

رأيته يلبط في حوض بقالة الإخوة «تانغ» فشككتُ في تهيؤاتي. كيف سبح الزبيدي من شط العرب في البصرة ووصل إلى الصين ثم اصطاده الإخوة «تانغ» وجاؤوا به إلى باريس؟

حين عدت إلى الخاتون بسمكات أربع بيضاوات عريضات يعربدن في الكيس، رفعت كفَّها إلى فمها وهلهلت مثل من تلتقي بعزيز طال غيابه. ولمَّا جاء زمزم، شمَّ رائحة السمك المقليٍّ وهو بعد في أسفل العمارة. وعندما صعد وشاهد السمكات ممدَّدات بدلال في الصينية، رقص وهو يدقُّ إصبعين. لقد تعرَّف على الزبيدي حالما رآه، وكأنَّه فرد من عشيرته تربطه به وشائج الرحم، فكيف يكون الجنون العراقيّ إن لم يكن هكذا؟

تطبخ لنا الخاتون الباذنجان مقلياً أولاً، ثم مشوياً في الفرن مع البصل المثوَّم والمغمَّس بمعجون الطماطة والمتبَّل ببهارات يشتهيها الأخ لأخيه. وربُّ البهارات الكمُّون. هكذا كانت تقول. تطحنه طازجاً وتهوى لونه وتتفاءل به وقد تتعطَّر أيضاً!

تخطب فينا الخاتون، مُنذِرَة، ونحن نتلقَّف الصينية الشهيَّة الخارجة من فرنها، تزفُّها روائحها:

– اسمعوني كلُّكم... إذا رأيتموني أموت وأصير جثَّة هامدة فلا

تجزعوا... قرِّبوا حفنة كمّون من أنفي ترتدَّ إليَّ روحي على الفور.

وكنت أشاكسها، متعمداً إثارة غضبتها الحلوة:

- هل تعرفين يا كاشانيَّة خاتون أنَّ صينية الباذنجان هذه تذكِّرني بعمَّتي، رحمها الله، إذ كانت تتفنَّن في إعدادها وتسمِّيها «إمام بايلدي».

وتصرخ الخاتون في وجهي:

- تخسأ يا عديم الذوق!

وأبلع لساني على الفور، إذ من يجرؤ على التفوُّه باسم طبخة تركيَّة أمام السيدة الأرمنية التي ذبح أحفاد الإنكشاريَّة أهلها وتركوها بلا عزوة ولا أحباب؟

قالت لنا، وهي تمسح عينيها وتزعم أنَّه البصل الذي يصيبها بحساسية لا تحتملها، إنَّ السيدة المسلمة التي ربَّتها فرضت على كل أهل البيت أن يستبدلوا بأسماء الطبخات التركية تسميات أخرى مختلفة، مراعاة لها واحتراماً لمشاعرها بعد أن كبرت وفهمت أصلها ومأساة أهلها. وهكذا صارت «الدولمة» ملفوف ورق العنب، و«القره زنكي» كُبَّة بالمشمش والزبيب، و «السمبوسك» فطائر اللحم، و«الإمام بايلدي» باذنجاناً مقلياً بكثير من الزيت مع البصل.

ولا يبدو على زمزم أنَّه قد هضم هذه السالفة، فيعترض على إلغاء تسمية من مفردة واحدة لإحلال أُخرى من ثلاث مفردات محلَّها.

لكن الخاتون تخرج عن تأدّبها المعهود وتنهره قائلة:

- أسكت دماغ سز!

ونغصُّ بالضحك على المرأة الطيبة التي تشطب التعابير التركيَّة من هنا فتقع فيها من هناك، ومعنا تكركر قناني نبيذنا الأوحد حتى أواخر الليالي.

١٤

الشهداء أكرم منا جميعاً

من وزارة الخارجية / مكتب السيد الوزير.

إلى السفارة العراقية في باريس / الملحقية الطبّية.

الموضوع: علاج مواطن.

تحية الصمود والنضال، أما بعد، فقد تفضّلَ السيد الرئيس، حفظه الله، وأوعز بعلاج السيد ساري نايف محمود على نفقة الدولة، في باريس، من مضاعفات حالة ازدواج الجنس التي يعاني منها منذ البلوغ. ونرفق لكم التقارير الطبية الخاصة به، راجين مفاتحة المستشفيات الفرنسية واتخاذ ما يلزم لإجراء العمليات الجراحية التي تحتاجها الحالة، بغضّ النظر عن النفقات.

عاشت ثورتنا وعاش حزبنا.

نسخة منه إلى:

- ديوان رئاسة الجمهورية / السيد السكرتير الخاص.

- وزارة الخارجية / المكتب الخاص.

- مديرية السفر والجوازات لإصدار تأشيرة خروج للموما إليه في كتابنا أعلاه.

- وزارة الدفاع / دائرة تجنيد بغداد، لتسريح الموما إليه أعلاه من خدمة العلم.

- الخطوط الجوية العراقية / فرع شارع السعدون، لاستصدار بطاقة سفر بغداد - باريس - بغداد باسم الموما إليه أعلاه وإرسال القائمة إلينا للصرف.

- منظمة حزب البعث العربي الاشتراكي / فرع فرنسا، راجين تسهيل أمر الموما إليه أعلاه.

- البنك المركزي العراقي / مكتب السيد المحافظ، لصرف مبلغ ألف دينار بالعملة الصعبة إلى الموما إليه أعلاه وتزويده بكتاب إلى مديرية الجمارك في المطار، يخوله إخراج المبلغ معه.

- مديرية أمن محافظة بغداد / للعلم والاطلاع.

- القنصلية الفرنسية / لاستصدار الفيزا للموما إليه، شاكرين تعاونكم معنا.

- السيد ساري نايف محمود.

التوقيع: وزير الخارجية.

١٥

وجد زمزم عملاً كمترجم في السفارة الليبية. وكان رأيه قد استقر على الاعتماد على نفسه في تدبير المعيشة، وعلى الانتهاء من الأطروحة ولو أكل خبزاً وبصلاً. لكنهم طردوه من عمله بعد أسبوعين لأن تقارير مخبريهم أكَّدت أنَّه يعاقر الخمر، وهذا حرام، ويعاشر فرنسية بدون زواج، وهذا قد لا يكون حراماً لكنَّه يخلُّ بالناحية الأمنيَّة. ونصحه موظف الاستعلامات، وهو يبلغه بقرار الطرد، ألا يعود إلى مبنى السفارة ثانية، ولا إلى الشوارع المجاورة لها.

ولم يكن زمزم ابن عسر، فأبوه الحاج مهيدي يدير متجراً للأجهزة الكهربائية في سوق السماوة، ويملك عدَّة دكاكين مؤجَّرة. لكن ظروف الحرب مع إيران لم تكن تسمح بتحويل النقود إلى خارج البلد، وهو نفسه كان يستثقل طلب النقود من الحاج، فقد صار رجلاً عريض المنكبين يقترب من الثلاثين، وحرياً به أن يساعد أسرته، لا العكس.

راح يمضي نهاراته عند الخاتون بعد أن استقرَّ في رأسه أن تسجيل سيرتها

هو عمل توثيقي مهمٌ لا غنى عنه للأجيال العراقية القادمة. ويبدو أنّها استمرأت، هي أيضاً، استعادة ما انطوى من أيامها الذهبية فراحت تغدق على زمزم بالتفاصيل وبما خفيَ من مكنونات نفسها الخضراء التوّاقة للعيش وللحبور.

كان فيليب قد كفَّ عن ملاحقتها بعد أن جاءه الخبر بأنها من أسرة مسلمة، فدفن غرامه الوليد في صدره وتعزّزت رغبته في الترهُّب والانصراف إلى صحبة التماثيل الآشورية والثيران المجنّحة. أمّا هي فقد كانت تتردَّد على الكنيسة من أجل يسوع ومريم، فأضافت إليهما الأمل بلقاء الشبح الوسيم الذي يرتدي البياض ويمشّط شعره الذهبيَّ إلى الوراء، كاشفاً عن عينين بلون «الورد ماوي»، تلك العشبة الزرقاء التي تغليها وتشرب ماءها عندما تداهمها وعكة الشوق وبرد أمّ الربيعين.

- قلت لك، يا ابني يا زمزم، إنَّ الذي جاء بذلك الأجنبيَّ إلى حافة ثوبي لا يمكن أن يعيده خائباً. إذ بعد أيّام من العيد الكبير، رآني وسمعني، دون قصد منه، وأنا راكعة عند كاهن الاعتراف أتلو فعل الندامة عن خطايا لم أقترفها. فماذا لدى فتاة مثلي، في تلك الأيام، من ذنوب، إلاّ إذا كان التفكير في ذلك الغريب معصية من المعاصي؟ لقد خلاّني تفكيري به أسهو وأمرض وينخطف لوني وتنعقد معدتي فلا تتقبل طعاماً. ألا يكون عذابي ذاك كفّارة عن ذنوبي الصغيرة؟

لمّا رسم الكاهن إشارة الصليب أمام وجهي وأعطاني الحَلَّة وهممت بالانصراف من مقصورة الاعتراف، رأيت يداً تمتدُّ لتعينني على النهوض من ركوعي، ولم يكن صاحب اليد سواه.

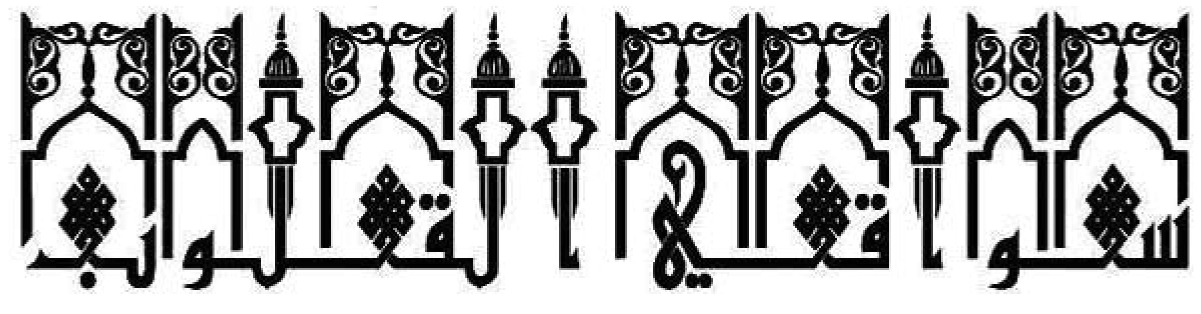
عاتب فيليب طبّاخة الدير، تلك الليلة، عتباً جرى مَثَلاً في الأمثال الموصليّة، فكان كل من يرى المرأة القصيرة السمينة، بعد سنوات من تلك الواقعة، يبادرها بالقول: «هل رأيت، يا هيلانة، مسلمة تعترف بخطاياها عند الأب جرجيس؟».

يوقف زمزم التسجيل ويعاود ملء كأسيهما بالنبيذ وهو يشعر أنه صار مسؤولاً، بشكل ما، عن هذه العجوز الطيبة التي تقطّر، يوماً بعد يوم، شيئاً من خلاصة روحها في قارورة كاميرته . كأنّه صار أمين سرّها وحافظ وصيّتها المخوّل بتسييج حديقة ذكرياتها وصدّ عبث العابثين عنها. لقد ازداد قرباً منها بعد أن استحوذ على رواية عمرها، لكنّه، وهو الآتي من مجتمع ريفيٍّ ضيّق، لم يستوعب كيف استقوت هذه المرأة على زمانها واختارت الرجل الغريب حبيباً.

يقول لها مناكفاً:

- كيف تجرأتِ، يا خاتون، على أن تحبّي الإفرنجي الغريب... وأنت ابنة مدينة محافظة مثل الموصل؟

- عيني زمزم، قابل الحب مكتوب بالطابو باسم أهل السماوة؟



١٦

بغداد في ١٢ أيار ١٩٨٥

أيُّها الصديق المحترم والعزيز،

أكتب لك هذه الرسالة وأبعثها بيد ولدي ساري وأنا في قلق وأيّ قلق على مصيره. وأستميحك عذراً إذ ألجأ إليك بعد كل هذه السنوات لألقيَ عليك شيئاً من الحمل الذي أحال حياتي سواداً ومأتماً مستمراً. وسيحكي لك ساري كل شيء، فهو الذي قرّر وهو الذي خطّط وهو الذي نفّذ، ولم يكن أمامي سوى الامتثال لما يريد بعد أن عجزت وأعيتني الحيلة عن تغيير رأيه. إنّه ولد جميل وطيب لكنّه عنيد مثل بغل. كان قرّة عيني فصار شلاّل دمعها، أنا التي ربيتُه و تباهيتُ به رجلاً يرفع رأسي بين الناس فماذا كانت النتيجة؟ صار يلبس ملابس البنات ويسرق زينة شقيقاته ويبيع هداياي إليه لكي يشتري بثمنها هورمونات ومزيلات شعر وأصباغاً وأشياء أخرى أخجل من ذكرها. صار بيتنا مشبوهاً في الحيّ، والصبيان يعايروننا بأنّنا بيت المخنّث،

والجارات يمنعن بناتهنّ من زيارة بناتي اللواتي انكسر نصيبهن بسبب هذا الشقيق الذي فضحنا جميعاً.

إنَّه أمانة بين يديك، وأنت تعرف أنَّ قلبي المجروح منذ ذلك الزمن البعيد ما عاد يحتمل لطمات جديدة. وسأتَّصل هاتفياً لأسمع أخبار ساري أولاً بأول، فهو ابني مهما شطَّ وتخبَّل. ومن يدري... لعلَّ الله يكتب له العلاج الشافي من مرضه النفسي في باريس، فتكون قد طوَّقت عنقي بجميل لن أتمكن من ردِّه مهما فعلت. ودمت سالماً.

نجوى

١٧

... و في اليو م الثاني لو صوله حمل ساري الكرسي الذي كان يجلس عليه، أمام التلفزيو ن، واقترب به إلى حيث كنت أتمدد، فوق الكنبة، أقرأ في قاموس عربي فرنسي، كعادتي كلَّ يو م.

قعد صامتاً يشدُّ حافات تنّورته البيضاء حول ركبتيه، أو يتأمل كفَّيه وأظفاره المصبوغة بالوردي، وينتظر أن أفتح معه الموضوع المؤجَّل.

أما أنا فقد كنت أريد أن أعرف مشكلته ولا أُريد. فإذا عرفت فلربَّما خفَّ ارتباكي في التعامل معه، لكن معرفتي بتفاصيل قصَّته ستورِّطني بالكامل وستسحبني من أنفي لأكو ن شريكاً فيها.

أقنعت نفسي بأنني ما زلت على البرِّ، وما استقبالي لساري سوى واجب عاديٍّ، أو لنَقُل خدمة أؤدِّيها لصديقة كانت لها في نفسي مكانة خاصة. لكنَّ وهمي لم يكن لينطليَ عليَّ ولا كنت أريده أن ينطلي. إنَّ لهذا الولد المكسور سحراً لا يمكنني تنميقه بالمفردات

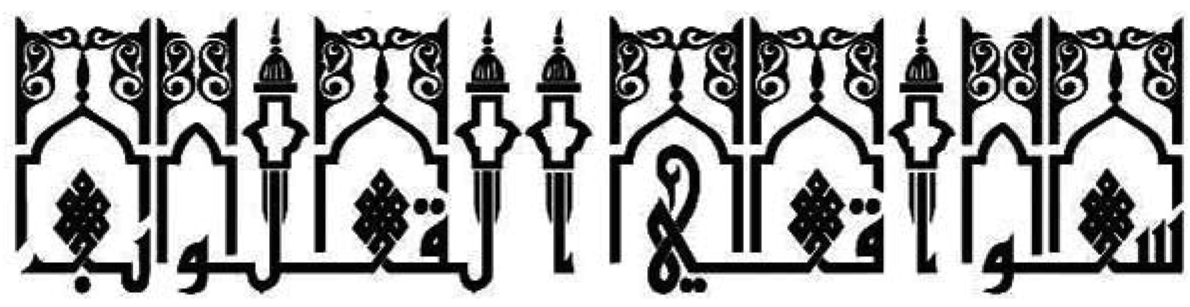
التي أطاردها في قواميسي أو أبتكرها في ساعات شرودي.
ما كنت قادراً على تجاهل استغاثة نجوى منذ أن قرأت رسالتها وشممت فوح لوعتها وقلَّة حيلتها. إن في ضعفها شيئاً من الاحتياج الذي يعيد لي اعتباري إزاء هجرانها لي. وها هو ساري، وحيدها المدلَّل وفتحة عينها، يحوم حولي باحثاً عن منفذ إلى ساحتي كي يدخل ويفرش فيها أرَقَه وقلقه ويطلب مني أن أغطِّيه وأكون الفيء الذي يحتمي به.
من أين لي بغطاء على قدر همِّك يا ابن نجوى؟
ولم أطق صبراً. فانطلق السؤال الذي كان يحرق لساني:
- ساري، ماذا قالت لك والدتك عني ؟
- قالت كل خير، و أني سأكون بين يدين أمينتين.
- و أنت ماذا تقول ؟
- أنا الذي أتساءل عمَّا يمكن أن تقوله أنت عنِّي.
- لن أقول قبل أن أسمع منك الحكاية.

قمت وأعددت الشاي وجئت بالصينية ووضعتها على الطاولة الصغيرة بيننا، ثم أشعلت سيكارة لساري وأخرى لي وتركت الولد يحكي حتى نضب وتهدَّل صوته كما تتهدَّل الأصوات في جهاز تسجيل ضعفت بطاريته. ولما شقَّ الفجر، قام ونام على الكنبة، وبقيت واقفاً أمام النافذة أطالع كنَّاسي الشوارع ذوي الأردية الخضر وهم في ضوضائهم المتسترة ببقايا العتمة.

لم ينم طويلاً. استيقظ قرابة الحادية عشرة ورجاني أن أرافقه إلى السفارة لكي يراجع الدائرة الصحية. وكان لفظ السفارة كفيلاً بإصابتي بالحكّة والغثيان. لكنني ارتديت ثيابي ووقفت أتفرج عليه وهو حائر بين التنّورة والبنطلون، فأشرت له أن يرتدي البنطلون وأن يمشّط شعره إلى الخلف.

نزلنا إلى الشارع وشربنا القهوة في المقهى القريب، ثم أخذنا المترو من محطة «كورفيزار»، في اتجاه « الإتوال». لم نتبادل الحديث في الطريق، ونزلنا في محطة «بورت دوفين» وخرجنا إلى جادة «فوش» ثم انعطفنا يساراً في الشارع المؤدي إلى السفارة، وتركته يدخل وحده لمتابعة إجراءات علاجه، ورحت أنتظره في المقهى المقابل وأنا أداري قلقي بلعب «الفليبرز»، متحاشياً موظفي السفارات الكثيرة الموجودة في الحي، ممّن يمضون في المقهى أكثر الوقت.

وعندما عاد ساري، كان منهكاً وجائعاً، وأراد تناول لقمة في أي مكان قريب، لكنني تعجّلت الابتعاد عن ذلك الشارع، فتوجهنا نحو محطة المترو، وكنا نشبه أباً يسير مع ابنه... ابنه الذي سيفقده عمّا قريب.



١٨

أصبحت قضية ساري الموضوع الذي لا فرار منه كلما التقينا في بيت الخاتون. وكانت هذه قد حكمت عليه، منذ أن لمحته معي من النافذة، مرتدياً ملابس النساء، بأنه «بربوق». قالتها باللهجة الموصليَّة التي تفخِّم القاف ففطس زمزم وسراب من الضحك. لكنَّها عادت وأبدت عطفاً حقيقياً عليه بعد أن شرحتُ لها أنه مريض، ولا ذنب له في كيانه المتأرجح بين الذكورة والأنوثة.

ولم يكن الالتباس في هيئة ساري هو ما يدهش الجماعة، فما أكثر هذه الأشكال في باريس، بل أثارهم أنه جاء للعلاج على نفقة الدولة التي رصدت له مليون فرنك.

سمع زمزم، حنقباز السماوة، هذا الرقم فتفجَّر لسانه بالشتائم واللعنات:

- مليوووون؟ هاتوا لي هذا المنيوك وأنا أطهِّره لكم ببلاش و أعيده

إلى أمِّه، مثل الورد، و «قلمه» المجتثُ يتدلى من جيب قميصه.
أزجره فلا ينفع، فأعود لإكمال القصة وأنا أتعمد التريث والمطمطة، متلاعباً بتوقهم إلى سماع التفاصيل:

- إنَّه وحيد أهله وعلى رأس ثلاث أخوات. لكن المسكين كان بنتاً محبوسة في جسم رجل، مثل كركدن محشور في مقطاطة. وعانى كثيراً من سخرية الناس بحيث إنَّه قرَّر أن ينتحر أو يغامر. ولأنَّ المغامرة تبقى أهون من الموت، أدار رقم القصر الجمهوري، ذات يوم، وهو يقدِّم إصبعاً ويؤخِّر أُخرى، وغاص قلبه عندما سمع الصوت المعروف يرد عليه، لكنَّه استجمع كل ما يملك من شجاعة وقدَّم نفسه باعتباره جندياً يعاني من مشكلة صحية خاصة. فاستدعاه صاحب الصوت للمقابلة في اليوم المخصص للشكاوى. وهكذا ما عاد يمكنه التراجع، فإما أن يذهب أو يؤتى به. وطبعاً ذهب إلى القصر وانتظر خمس ساعات وقابل الكبير وروى له المشكلة.

أتوقف عن السرد فتنهال عليّ عبارات الحثّ والتوسل من سراب والخاتون: «يا الله عيني»، «فدوة أكمل»، «إحكِ لخاطر الله»، «دخيلك شصار بعدين؟».

أقوم وأذهب إلى دورة المياه وأتركهم بين مصدِّق ومكذِّب للرواية. وحين أعود إليهم ألاحظ أنَّ كأس نبيذي قد أينع وحان قطافه، فأشفط رشفة ذات صفير وأصمصم شفتيَّ بتمهُّل وأسألهم:

- أين كنا ؟

يردّ الثلاثة بصوت واحد:

- في القصر الجمهوري...

- ذهب ساري إلى القصر الجمهوري، وقابل الرئيس وحكى له الحكاية بتفاصيلها منذ الطفولة، أي منذ أن وُلِدَ وبين فخذيه علامة الذكورة. وقال إنَّ المشكلة تعقّدت في سنّ المراهقة، ثم ازدادت تعقيداً بعد أن ساقوه إلى الجنديّة. وقد راجع طبيباً أحاله على ثانٍ، ثم على ثالث ورابع، وفي النهاية ارتأى الأطباء أن المريض يحتاج إلى عملية جراحية دقيقة، خارج العراق، لتحويله من ولد إلى بنت. وهنا سأله الكبير: «ماذا يقرب لك المريض؟» أجابه: «أنا المريض... سيِّدي»، فقهقه صدّام تلك القهقهة المعدنية المشهورة وقال له:« ها أنت أمامي فتاة مكتملة على أربع و عشرين حبّاية، فماذا تريدين أكثر؟».

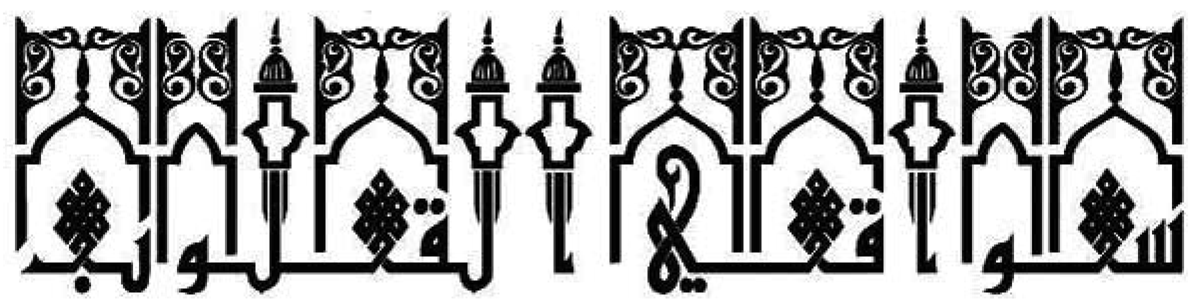
في تلك الليلة، بعد أن انفضَّ الشمل ونزلت إلى شقَّتي، وجدت ساري في انتظاري لكي يريني الثياب الجديدة التي اشتراها، والحذاء ذا الكعب العالي، وكان مستوفزاً ومأخوذاً بأسواق باريس، يكرر «تخبّل... تجنّن... تهبل...»، وكلُّها مفردات تضربني على أعصابي ولا مكان لها في قاموسي.

ولأنني لم أكن راغباً في إطالة السهرة معه، فقد استلقيت على فراشي وتركته على راحته، فقام وأطفأ النور وتمدّد على الكنبة، قرب

النافذة، ومصباح الشارع يلقي بنوره على خصلات شعره الطويل فيحيلها إلى ذهب متوهج، ثم سمعته يتحدث وكأنه يكلِّم جنيَّات العتمة:

- قبل شهر واحد فقط كنت في جبهة ديزفول، أرتدي الخاكي وأرابط تحت نيران جهنَّم الحمراء، مثل رقم ينتظر سحبة اليانصيب، أو اللانصيب، لكي ينضمَّ إلى قائمة الشهداء. ولو جاء القُبيس، حينها، وبشَّرني بهذا السفر إلى باريس لما صدَّقته. لا أحد يعرف ضراوة هذه الحرب المجنونة إلاّ من أكل خراءه في خنادقها. لكنَّ الحرب لم تكن كارثتي الأهم، بل آمر الوحدة الذي وجد فيَّ اللعبة التي تسلِّيه وتسلِّي جنوده في ليالي الهدوء والضجر. أرقص لنا يا ساري... هزهز صدرك... تمايل بخصرك... بَعَد... بَعَد يا ساري... للقاع للقاع... وكانوا يصفِّقون ويضحكون ويقرصونني ويدسون أصابعهم في مؤخرتي ويهرسون لحمي مثل وحوش جائعة، وأنا أتقافز في وسطهم، وأتمنى لو يأتي صاروخ ينسفهم جميعاً... ينسف أولئك السرسريَّة ويُبقي لي العريف ماهود، فقد كان الوحيد الذي يستنكف من الاشتراك في تلك الحفلات الهمجيَّة. ماهود الأسمر، الحلو، البصراوي، الذي يحبُّ غناء داخل حسن ويحفظ قصائد مظفَّر والسيّاب ويخبئ الكتب في طيَّات البطانيَّة. كان يشعر بما أحسُّ ويصدُّ تحرشاتهم عنِّي، لذلك أحببته وكنت أغسل له جواربه وأعدُّ له الشاي على الفحم وأضع بسطاله، كل ليلة، قرب النار لكي تخرج منه الرطوبة.

وتنهَّد ساري، في ظلام الغرفة، حتى خلت أنَّ صدره قد انخلع مع زفيره، وأخذتني عليه شفقة ونقمة، ثم غلبه النوم ولم أعد أسمع له حساً، فنهضت بحذر وتلمَّست موضع «المنجد» على رف المكتبة، وسحبته ومضيت إلى المطبخ باحثاً عن المعنى الدقيق للفظة «بربوق»، لكنَّ القاموس خذلني مرَّة أخرى.



١٩

أصرّت كاشانيَّة خاتون على إقامة مراسم دفن دينيَّة لسراب، وسألتني رأيي فلم أعترض. كل ما يحدث بعد ذهابها لا يهمُّني. فلا الوقت هو الوقت، ولا باريس هي باريس، ولا أنا أنا.

يحكُّني غيابها بمخالب من أشواك وأشواق، كأنني، وأنا اليتيم من زمان، أختبر اليتم هذه اللحظة. وتطول بي الليالي وتتَّصل بالنهارات فلا أعرف كيف أنام ومتى أصحو. ورحت أجد تنفيساً بالحديث إليها والتصديق بأنَّها تسمعني، فأحكي لها عن الغيم الذي يتشبّث بالسماء، وعن ساعي البريد الذي دسَّ لها رسالتين في صندوقها، ثم أروح أغازلها وهي تمشِّط شعرها، وأليِّف ركبتيها وهي مستلقية في مغطس الحمَّام، وأغنِّي لها أغنية زكية حمدان التي تحبّها «أرى سلمى بلا ذنب جَفَتني وكانت أمسِ من بعضي ومنِّي»، وكأنَّنا ما زلنا نحضر لقاءات «حمَّامات الحنين» في بيت الخاتون.

ثم يشطح بي خيالي وأرى سراب، رؤية العين، تتراقص أمامي،

بجسدها الذي ما عاد شاباً ولا مشدوداً، لكنَّه بليغ في غوايته، وأمدُّ كفّاً متهوِّرة لكي تعتصر نهدها الثقيل البعيد... فأسمع شهقة «آخ».

قالت الخاتون لزمزم:

- صاحبك راح يجن...!

ولازمني الحنقباز وهو يبذل أمامي كل مواهبه الفكاهية، محاولاً إخراجي من كآبتي، حتى أوشكت أن أطرده من ملعب الأموات والأحياء القانعين بحصَّتهم من الأقدار لأنهم قبضوا، مُقدَّماً، فائض سعاداتهم.

أمّا ساري، فكان يعتني بشرابي وسجائري ونظافة بيتي وهو يتحرَّك حولي مثل دخان لا تراه العين، يحاذر المساس بي مخافة أن يجرح هشاشتي أو يثقب شرنقة أحزاني، وكم كنت ممتناً له وهو يتصرَّف معي مثل أمٍّ مثالية تحنو على ولدها، أو عاشقة تنكر ذاتها من أجل المحبوب. وتخيَّلته ملاكاً أرسلته لي نجوى تكفيراً عن تخلِّيها عنِّي، وهديَّة جميلة في زمن بخيل بالهدايا.

أخذ ساري بدلتي الوحيدة المهملة إلى المكوى، واشترى إكليل زهور بيضاء، ووقف يشدُّ أزري، مثل الملاك الحارس، ونحن نتبع الخاتون إلى مراسم التشييع. ولا أدري من أين جاءت بذلك الكاهن الذي يتحدث بلهجة سوريَّة، فوقف عند الجثمان المسجى في كنيسة المشفى يعدِّد مناقب الراحلة التي لا يعرف عنها شيئاً، ويطري «عمل الخير الذي نذرت له نفسها». أما أنا، فكنت أسترجع

شمائل سراب الأخرى التي لا يعرفها غيري، وأضنُّ بها عليهم، مستذكراً ليالي الجنون وصباحات الصفاء في شقّتي الصغيرة، لاعناً الشياطين التي تنكح البني آدم من حيث لا يريد.

كنّا قد بحثنا عن أهل لسراب نتّصل بهم في بغداد، لكن الخطوط كانت مقطوعة بسبب الحرب. وكلّمتُ الباهي في مكتبه بوكالة الأنباء فجاء ووقف معنا وقفة رجل شهم واقترح أن يتدخّل لدى القنصليّة لتتولى نقل الجنازة إلى أرض الوطن، لكنني أبلغته بوصيّتها التي طلبت فيها أن تدفن حيث تموت، ورجوته أن يلقيَ بالنيابة عنّي، كلمة الأهل والأصدقاء، كما هي عادة القوم هنا، لأنَّ تلك المهمّة كانت فوق ما أحتمل.

لما جاء دوره، قام ووقف قرب الكاهن، وقرأ الفاتحة ومسح وجهه بكفّيه، وقرأنا الفاتحة معه أنا وزمزم وساري، بينما رسمت الخاتون إشارة الصليب على وجهها، ثم انطلق يقرأ، ونحن مأخوذون بالمفاجأة، من بائيّة المتنبّي في رثاء أخت سيف الدولة:

غدرتَ يا موتُ كم أفنيتَ من عدد
بمن أصبتَ و كم أسكتَّ من لُجُبٍ
طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ
فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقُه أملاً
شرَّقتُ بالدمعِ حتى كادَ يشرقُ بي

٢٠

انتقل ساري، قبل دخوله إلى المستشفى، إلى شقَّة خاصة به بناء على نصيحة الطبيب النفسيِّ. كان عليه أن يتعوَّد على العيش ككائن مستقل لا يخضع للتأثيرات وأن يتّخذ قراره بنفسه. وسبقت العملية الجراحية جلسات يوميَّة مع ذلك الطبيب بحضور مترجم من الملحقيَّة الصحيَّة. كان لا بد من تهيئته للقفزة الصعبة من فظاظة الرجولة إلى مخمل الأنوثة. هكذا كان يفسِّر أمره لي ويقول:

- كأنَّما الله خلق أبانا آدم من جوخ وأمَّنا حواء من قطيفة.

وأبتسم لتلك الصورة وأقول له:

- أنا ألمح فيك، يا ملعون، خامة شاعر يعرف كيف يبتكر المعاني، فأنت أوَّل من استلَّ القطيفة من ضلع الجوخ.

ويضحك ابن الكلب، لإطرائي، بخفر مثير مثل غانية لم تفقد ماء وجهها بعد.

ووصلتني رسالة ثانية من نجوى تسأل فيها عن ابنها وترجوني ألا أتساهل معه في نزقه واندفاعاته. لكن من كان قادراً على لجم الشلاّل المتدفق الذي هو ساري، إذ يرى نفسه على قاب قوسين من الانتقالة الحاسمة التي طال انتظاره لها؟

لم أردّ على أيٍّ من رسالتيها. ذلك أمر لا طاقة لي عليه. إذ ما زال طيفها يحرّك دواخلي، رغم ابتعاد الزمان والمكان. وأنا لن أخون سراب، ولو خيانات بريئة، مع الأطياف السادرة في أمومتها... ليس بعد.

ولمّا أزف موعد العمليّة، جاءني ساري في العشية وهو ممتقع الوجه، وسألني الذهاب معه إلى المستشفى في الصباح التالي، وقال بصراحة:

- أنا خائف من العملية... راغب فيها وخائف منها.

- أمّا أنا فلا أحبُّ دخول المستشفيات إلاّ على جثتي.

هكذا قلت له بالصراحة نفسها، معلّلاً موقفي بأنّ مرض سراب وموتها جعلاني أكره المستشفيات و لا أطيقها. و أدهشني أنّه تقبّل ذلك بطيبة خاطر، بل دعاني إلى العشاء في المطعم الذي أختاره، لكي يطرد عنه الأفكار السوداء. وقبلت الدعوة طالما أنها من الفلوس الكثيرة التي أغدقها عليه صدّام بجرّة قلم... الفلوس المحرّمة على أمثالي.

أخذته إلى مطعم في حيّ مونبارناس يقدّم أسماكاً طازجة، و طلبنا الأفوكاتو بالروبيان والخلطة الحارّة كفواتح للشهيّة المفتوحة أصلاً، ثم اخترتُ سمكة موسى مشوية على الفحم ورحت أرتجل عجزاً لم

ولو فتَّشت و نبشت رأسي لما وجدتُ لسراب راثياً مثل المتنبّي. وهي واحدة من تجلّيات الباهي، الرجل الذي يسكر بالمعرّي وأبي تمّام ويمزمز بأشعار العبّاس بن الأحنف. وكنتُ اكتشفت هذا الصديق والمَشّاء الذي لا يتعب وخبرتُ مخزونه التراثيّ الثمين، عندما سهرنا معاً، ذات ليلة تُذكر ولا تُستعاد، في بيت كاتبة من معارفه، وخرجتُ معه، في آخر الليل، أبحث عن تاكسي، فسَخر منّي، واصفاً إياي بالشيوعيّ ذي التطلّعات البرجوازية، وسحبني من يدي وسرنا معاً قرابة الساعتين وهو يروي من حافظته حوادث تملأ كتباً، ويقرأ أشعاراً تفرفح الفؤاد.

وكنا قد وصلنا قرب برج إيفل، بمحاذاة السين، عندما انطلق صوت الباهي يصدح بالمقصورة الفذّة: «ألا كُلّ ماشية الخَيزلى... فدى كُلّ ماشية الهَيذَبَى». وهات من يشرح للبرج المعتم الذي قدّ من حديد، الفرق بين الخيزلى والهيذبى، ويدلّه على عبقرية أبي الطيّب وهو يمرّ على ضحك كالبُكا...

وإذ أذكر، اليوم، ارتجال الباهي في مأتم زوجتي، تَحضرُني صورة الخاتون وهي تهزّ رأسها معجبة بإلقائه، ثم تستحلفه، بعد أن خرجنا من الكنيسة، أن يقول شعراً عند وفاتها. فيجيبها:

- أعمارنا بيَده، سيدتي الكريمة، فقد أسبقك وتقفين لرثائي...

إنّ هَبَّة من الشجن تلفحني، يا رفيق غربتي يا زمزم، وأنا أرى الخاتون تهتزّ مع اهتزاز السيارة التي تغذّ بنا السير إلى بغداد... حيث لن يقف ليرثيها، بعد عمر طويل، زوج ولا ولد.

أفلح في إيجاد صدر له «... وإنني في غيبة المسكوف قد أرضى بموسى»!

جاء النادل ذو التهذيب الفطريّ أو المفتعل وسألَنا عما نحبُّ أن نشرب. وسألته بدوري عن أفخم شراب لديه، فكوَّر شفتيه كمن يهمُّ بقُبلة، و تلمَّظ باسم لم أسمع به من قبل، فيه كاف وفاء وزاي، وقال:

- إنَّه نبيذ أبيض مِّن الألزاس، مطعَّم بنكهة الإجاص، بارد ويناسب السمك تماماً.

- هرولْ إلى المطبخ، أيُّها الساقي، واجلب نبيذك مخفوراً إلينا.

رشفت الرشفة الأولىمن رحيق العفاريت ذاك فعرفت معنى الوصف الشعبي «وين ما ينزل يهلهل». ودعوت النادل أن يصبَّ كأساً لرفيقي، لكنَّ ساري حاذر الشراب خشية حدوث اختلاطات مع الأدوية التي يتعاطاها.

قلت له:

- إشرب يا ابن نجوى وانسَ العمليَّة... فاليوم خمر وغداً أمر... وبعد غد يحلها حلاَّل.

أبلينا، نحنُ الإثنين، بلاء حسناً في تلك الموقعة المونبارناسيَّة، وخرجنا وكلٌّ يتكئ على صاحبه بعد زجاجتين تاريخيَّتين من نبيذ الأبالسة. أم إنَّ جمعها أباليس؟ وسرنا نحو محطة «إدغار كينيه» بمحاذاة سور المقبرة الغافية وراء أشجار الدلب والكستناء، وشرعت أغنِّي: «وفراكهم بجَّاني جالماطلية بالضلع»، ولا شكَّ أنَّ الراقدين تحت

ألواح القبور الرخاميَّة هجسوا بأنَّنا من سكارى شارع أبي نواس في تالي الليل، فتقلَّبوا على جوانبهم الأخرى وتغاضوا عن نزقنا.

ثم كان لا بد من أن أستذكر لوعتي في فقد سراب، وأن أسخط وأشتم القريب والبعيد وكلَّ أخوات القحبة الذين كانوا السبب في حزني المقيم والمزمن... لكي يكتمل طقس السكر العراقي الأصيل.

وصلت شقَّتي وأنا منهك وثقيل الرأس، لكني تحاملت على تعبي ولم أتمكن من أن أهمد على السرير قبل أن أفتح «المنجد» على مَطَلَ وماطَلَ وأمطل، بحثاً عن الماطلية التي تنغرز في الضلع فتشبه في وخزها وجع الفراق. ووجدت أنَّ المطلَّة هي «الحديدة تُحمى وتُضربُ وتُمدُّ فتُجعل صحيفةً». وارتحت لهذه المعلومة أيَّما ارتياح وانخمدت على فراشي في نومة لم أعرف أختها منذ أشهر.

كانت تلك الليلة آخر عهد ساري بالرجولة التي التصقت به زوراً وبهتاناً. وقام في الصباح وذهب إلى يد الجرَّاح الذي أزال زوائده ونمَّق له أنوثة بالإبرة والخيط.

وفي حين أنَّ شعوراً غريباً كمذاق الصدأ على اللسان كان يصدُّني عن الذهاب لعيادة ساري بعد العمليَّة، فإنَّ زمزم لم يصبر وذهب إليه في المساء نفسه، وعاد خائباً لأن الضمادات كانت تغطِّي موضع الجرح و لا تتيح التفحُّص المنشود.

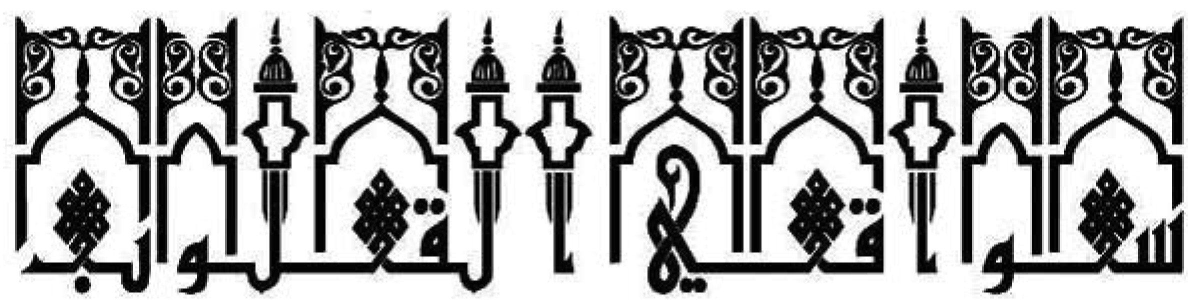
سألته:

- هل تفرجت عليه وارتحت؟

- ماكو فرجة. كله قطن وشاش.

- وكيف هي معنوياته؟

- تقصد معنوياتها. كانت تتوجَّع وتبكي فيسيل الكحل من عينيها على خدَّيها... المصبوغين بالأحمر، لكنها تتحامل وتقول «شدَّة وتزول». أليس هذا ما جاء من أجله الجندي المكلَّف ساري يوم دعت له أمُّه دعوة مسموعة فانتشلوه من حلق السبع في ديزفول وقذفوا به إلى باريس؟



٢١

حلَّ الخريف بكل غواياته اللونية واختفت الأرصفة تحت أوراق الشجر. وتواطأ كناسو الشوارع مع تجليات الطبيعة فتركوا ذلك البساط الملوَّن يغطي أرضية باريس وكأنَّ الواحد منهم فنان انطباعي بالفطرة.

هكذا هي الفصول هنا، تهجم بدون مقدِّمات، ثعلباً مكَّاراً يلعب لعبته مرَّة بعد مرَّة فتنطلي علينا الحيلة في كلِّ مرَّة، ونسكر من فرط الانبهار بالمشهد المفتوح على سعته لكلِّ ذي عينين.

على أن جمال المدينة، وهو يتقلب ويغير مزاجه، كان فوق طاقة المكلومين والمستوحشين على التحمل. كأنَّ تأمل كل تلك الأطياف الكستنائية والذهبية والحمراء ينطوي على شيء من تعذيب الذات وهي في حدادها المقصور الألوان.

حتى اللون الأسود كان، في حالتي، باذخاً واحتفالياً وكثير الألق.

بدأتُ أستطيب وحدتي على ما فيها من مرارات، وأتحاشى أصدقائي

القلائل وأهرب من قلقهم عليَّ. ومكثت على تلك العزلة فترة لا أعرف كيف أحسبها، ألتمّ على نفسي وأحادثها وألعق دموعي الجارية إلى داخل جسدي. ثم كان لا بد للحياة من أن تأخذ مجراها، وآن للعاجز أن ينضوَ عنه الضماد وأن يترك العكّاز ويقوم واقفاً.

كان الفيلم الذي سجّله زمزم للخاتون قد اكتمل، وجاءني بنسخة من الشريط طالباً ملاحظاتي عليه. غير أنّي كنت في وادٍ آخر، وجسدي المفطوم يوجعني، والغياب يفتفت ذائقتي ويُخسِر ميزاني.
تركت الشريط فوق رفّ المدفأة لعدّة أيام إلى أن غمز لي، ذات مساء، ودعاني إليه، فوضعته في الفيديو ونصبتُ مائدتي الليلية ورحت أتفرج على جارتي ونديمة غربتي، المرأة الموغلة في العمر، التي ما إن تتحرك فوق الأرضية الخشبية لشقّتها حتى أسمع خطواتها البطيئة الثقيلة تئزُّ على سقف غرفتي، فتندُّ عنّي «اسم الله ... يواش يواش».
كأنَّ ذلك الأزيز الخشبيَّ الصادر عن وقع خطواتها نوع من إشارات «مورس» التي يلتقطها البحارة التائهون في الغياهب فيعرفون أنّهم ليسوا وحدهم، وأن أملاً يلوح في أفق ما.
أراحتني صورتها على الشاشة، كأنّها جاءت تزورني، لأول مرّة، في بيتي. وأدهشتني طاقتها الجبارة على اقتناص الحياة وهي تروي كيف ذهب فيليب يخطبها من أمّها المسلمة وفي جيبه اثنا عشر سواراً من ذهب الليرة.

- قلت له إنني، بخلاف نساء الموصل، أفضّل الفضة على الذهب. فقام من توّه وقصد السوق القديم وجاءني بما لا تشبع منه عين. مشط من الفضة، وبقجة على هيئة دجاجة فضية لترتيب لوازم الاستحمام، وقبقاب ملبَّس بالفضة ومطرز بالكلبدون، وخواتم تمتدُّ منها سلاسل تتصلُ بسوار عريض، وخلاخيل تغري بالرقص، ومكحلة على هيئة طاووس، وزنار تتدلى منه النجوم والأهلَّة والقلوب، ومروحة من خوص النخيل مع ليفة للحمَّام مزيَّنتان بالليرات الفضية. حتى حجر دعك القدمين كان مُلبَّساً، من حدبته العليا، بمقبض من الفضة.

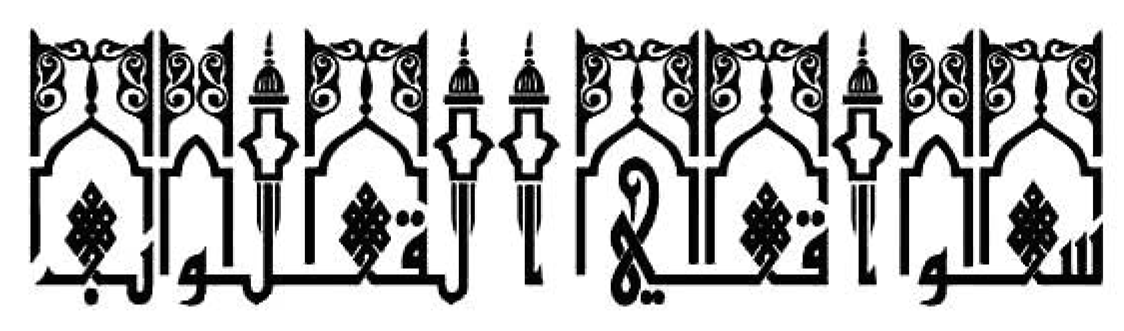
ونزل فيليب إلى بغداد، في إحدى المرات، وقصد دكاكين الصاغة الصابئة وجاءني بملاعق وشوك من الفضة وبعلب مطعمة بالمينا السوداء وببشاكير تُحبس فيها مناديل المائدة، كلها من الفضة، خلبت رقَّتها عقلي وجعلت مني امرأة تتيه على الأخريات.

هل سمعتَ يا زمزم بالصائغ زهرون؟ إنَّه أبوهم جميعاً، وكان ينقش الفضَّة بأنامل من ذهب، وقد تعلَّم النقش بالمينا من نقَّاش روسيّ لا أدري أين التقاه، وكانت مشغولاته تحفة زمانها.

وبفضل تلك الهدايا التي لا يطلبها إلاَّ زبون رغَّاب، نشأت صداقة لطيفة بين زوجي وبين صائغ آخر هو عباس عمارة، والد لميعة التي أصبحت شاعرة معروفة فيما بعد. وتوطَّدت تلك الصداقة بعد أن انتقلنا إلى العاصمة، حيث التحق فيليب بفريق لصيانة اللقى الأثرية في المتحف. وكنت أحرص على مرافقته عندما يذهب لزيارة صديقه الصائغ في دكانه الواقع في شارع النهر، مقابل شركة «بيت

لنج» للنقل بالبواخر، وهو دكان واسع يمتدُّ، من جانبه الخلفي، حتى دجلة. وكان عباس عمارة ذا شخصية ساحرة، متحدثاً بارع الأسلوب، يجيد الإنكليزية والفرنسية، فكنت أقف خرساء أمام هيبة ذلك الرجل ذي الأناقة الملوكية والأريحية التي لا تُنسى، إذ يصرُّ على استبقائنا للغداء معه، ويرسل بطلب الطعام من بيته في صوب الكرخ، فيأتي الصانع بزنبيل الغداء وأنواع الفواكه وهو يركب زورقاً يرسو عند الباب الخلفيّ للدكان. وما زلت أذكر الحفلة التي أقمناها لصديقنا الصائغ الموهوب في بيتنا الواقع في بارك السعدون بمناسبة حصوله على وسام الشرف الفرنسي. كان نقّاشاً لا يُضاهى، وهو أول من استوحى الآثار والمناظر المحلية في الصياغة، كالغزالة البابلية والقيثارة السومرية والثور المجنَّح والقباب والنخيل والأشرعة التي تسري فوق دجلة. هل تتصوَّر يا زمزم أنَّ الرجل كان يرهن مصوغات زوجته لكي يسافر إلى المعارض العالمية ويقدم فنَّه باسم العراق، يوم لم تكن لدينا وزارات إعلام ولا محترفو وجاهة؟ وعندما كان يفوز بالجوائز، فإنَّه كان يرسل إلى زوجته لكي تفكَّ الرهن. وقد شاهدت، قبل فترة، فيلماً عن معرض افتتحه الرئيس روزفلت، في أمريكا، أواخر الثلاثينات، ولمحت العلم العراقي يرفرف بين أعلام الدنيا بفضل مشاركة عباس عمارة. هل تعرف أنَّ ابنته لميعة كانت تعمل هنا، في باريس، وقد جاءت لزيارتي في هذا البيت وجلست على هذا الكرسي الذي تجلس أنت عليه الآن، وقرأت لي قصيدة هيَّجت كل العصافير الغافية في صدري؟

أوف زمزم، من أين سيأتيني النوم، هذه الليلة، بعد أن أخرجت كلَّ حياتي من صناديق الماضي وفرشتها هنا، أمامك؟



٢٢

طالعة من بيت أبوها؟ لا يا ناظم يا غزالي، لولا صوتك الذي يوضع على الجرح فيطيب لما غفرتُ لك أن ترفع الأب وهو في موقع الجرِّ من الإعراب. قل طالعة من بيت أبيها ولا تقل من بيت أبوها، رايحة لبيت الجيران، صح. فات ما سلَّم عليَّ، صح. يمكن الحلو زعلان. رايحة وزعلان؟ هل كان صبياً حلواً أم بنتاً حليوة يا ناظم؟
سلَّم عليَّ بطرف عينه وحاجبه... أدى التحية وزين يعرف واجبه!
عشت يا حضيري يا أبا عزيز الورد، فأنت تستأهل السلام. أما أنا فإنَّ الأيام تمرُّ وهي تشيح بوجهها عني ولا تسلِّم عليَّ ولا أسلِّم عليها. ولم يعد لي غير المسجل رفيق يعيد ويكرر الأغاني التي أحب. أتحدث معه وكأنَّه شخص عاقل، و أنظر من نافذتي إلى الناس في الطريق فلا أجد نغمة تربطني بهم. هل أعيش، بالفعل، في باريس وأعاشر أهلها أم أسكن داخل ذاتي التي لم تتمكَّن من مغادرة قوقعتها؟
يسألني المسجّل الصدّاح ما للندامى ومالي؟ وأسأله هل مرَّت بك

الإبل؟ وأطرب لصوتي الذي لا أظنُّه يُطرِب أحداً سواي.

أمضيت أياماً أعاشر المقامات وأنا في مهجعي، أسمع دبيب خطوات الخاتون على سقفي فلا أتحرَّك من رقدتي على الكنبة، محتضناً القاموس، شارداً بين المفردات، باحثاً عن اشتقاقات تصف الفجَّ العميق الذي سقطت فيه، فلا أقع على ما يشفي غليلي.

حتى زمزم أعيته الحيلة. ولم تكن زياراته لتنفعني لأنَّ مزاجه كان مثل الخراء، أكثر جيفة من مزاجي. لقد فصلوه من الحزب لأنه رفض أن يمنح صوته للقائمة التي نزل بها الرفاق في انتخابات الطلبة. وهو يأتي ليجلس أمامي ويعيد ويكرر رواية التفاصيل ويشتم، بين عبارة وأخرى، شتائم تستحق التوثيق:

- قلت للقواويد لماذا لا تتركون المجال مفتوحاً لكلٍّ من يريد ترشيح نفسه، طالما أننا كلنا بعثيون؟ قالوا: «نفِّذ ثم ناقش». ولعلَّ بعض المضاريط تصوَّروا أنني أنوي ترشيح نفسي لمنصب من تلك المناصب القندريَّة، وأنا لا أشتريها كلَّها بفلس أحمر. وهكذا اجتمعوا كما تجتمع بنات آوى و تداولوا في القضية وقرروا فصلي من الاتحاد التافه ومن الحزب كلِّه، ولم ينسوا أن يصوِّتوا على القرار بكل ديمقراطية قرقوشية بلهاء، وجاءت النتيجة ضدي بالإجماع بسبب ما سمَّوه عصياني... هم وخصياني سواء.

- ألم يعترض أحد من زملائك على فصلك؟

- لم يقف معي ولا ابن زفرة. كلٌّ يخاف على لقمته ويداري النار، كما يقول المثل، على خبزته. بعران مصابة بالإسهال... جبناء

خوأفون طراكيع أولاد مليون كلب.

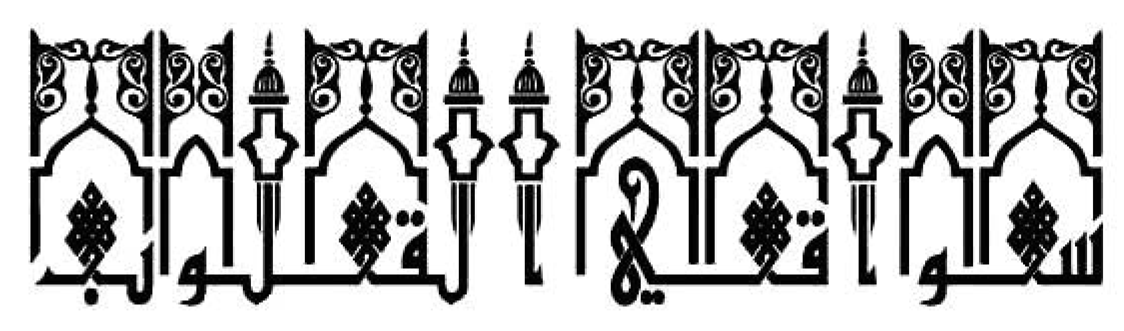
كنت أستمع إلى زمزم وأخاله يحكي عن حزبي، لا عن حزبه، فازداد همّي و طردته من قبالة وجهي لأنني لم أكن ناقصاً هماً. ما الفارق بين الحصبة والجدري؟ وأيُّ أعمى قلب ذاك الذي اخترع الأحزاب وأوقعنا في حبائلها؟

قل لي يا حلو منين الله جابك؟
خزّن جرح قلبي من عذابك!

يرنُّ الهاتف فيقطع عليَّ استرسالي في الأغنية. وأرفع السماعة فأفاجأ بصوت نجوى يسيل على أذني عسلاً أبيض.

- كيف أنت يا نجوى؟ وكيف بغداد؟ اطمئني، ساري بخير والعملية مرَّت بسلام. لا، لا داعي للقلق، غداً أذهب إليه وأدعه يكلِّمك بنفسه. لا تحملي هماً. تصبحين على خير.

هلج وين يا نجوى... هلج وين يا نجوى...؟



٢٣

أزاح ساري الشرشف عنه، حالما رآني أدخل غرفته في المستشفى، وباعد ما بين فخذيه وهتف:

- هل رأيت في حياتك ما هو أجمل من هذا؟

أردت أن أدير عينيَّ عن تلك البقعة الوردية التي تشبه تويج زهرة مضموماً، لكن العينين لم تمتثلا لرغبتي وواصلتا التحديق في مكمن الأسرار. أيُّ نطاسيٍّ فنان طرَّز هذا التطريز؟

أغرقني الحرج حتى ضاعت منّي العبارات المناسبة التي تُقال في مثل هذه المواقف. أي مواقف؟ إنَّ الحالة جديدة عليَّ تماماً... فماذا أقول وعلى أيِّ سلامة أهنئ المريض؟

كان قد رفع شعره الفاتح الطويل في خصلة كبيرة ربطها بشريط أسود، وزجَّج حاجبيه حتى لم يبق منهما سوى قوسين خفيفين أسمرين، وأمسك بين يديه مرآة مكبِّرة يقربُها من مفترق فخذيه ولا

يشبع من تأمل الأعجوبة الصغيرة المتحققة هناك، ثم يصفر إعجاباً وكأنّه يتفرج على تحفة في معرض للمنمنمات.

- اتصلت أمُّك أمس وسألت عنك...

- أمّي؟ لا تُذكِّرني بها يا معوَّد. فهي لو رأتني كما أنا الآن لأغميَ عليها. المهم أنَّ الطبيب مرتاح جداً للنتيجة، ويقول إنَّني ما زلت في أول الطريق، وقد بدأ العلاج الهرموني يفعل فعله، وسيبرز نهداي وسيزداد جلدي طراوة وصوتي نعومة، ثم أبدأ حصص إزالة شعر الوجه بالكهرباء. أنا الآن بُنيَّة بالفعل، امرأة لا ينقصها سوى الرحم!

- والدتكَ تريد أن تسمع صوتكَ وأن تتحدث معكَ. هل تستطيع السير على قدميكَ إلى كابينة الهاتف؟

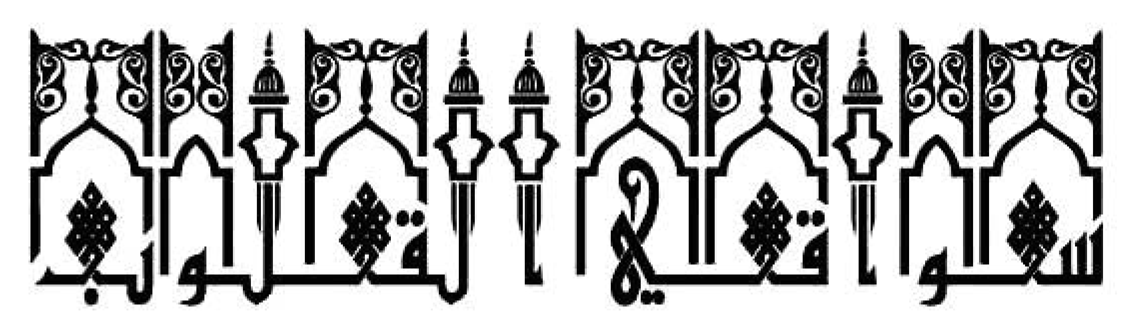
- هل يزعجك أن تخاطبني بصيغة المؤنث؟ طبعاً أستطيع السير لأنَّ العمليَّة لم تمسَّ ساقيَّ، وقد سمح لي الطبيب بمغادرة المستشفى بعد يومين. لكنِّي لن أكلِّم أمِّي الآن... لا أريد أن أسمع نحيبها وولولاتها على الولد الذي ضاع منها ومات وهو في الحياة. كيف يمكن لها أن تفهم سعادتي الحالية؟ إنَّ هناك من تَلدهُ أمُّه ناقصاً، أما هي فقد ولدتني زائداً. وها أنا أولد من جديد... أولد الولادة التي على مقاسي!

نظرت إلى المنضدة الصغيرة التي قرب السرير فوجدت مجلات نسائية وأشكالاً من قوارير الزينة والمراهم الثمينة. وكانت هناك

باقة كبيرة من الزهور وفوقها بطاقة الملحق الطبي وباقة أخرى، على مائدة الأكل المتحركة، من اتحاد نساء العراق.

وغلبتني ابتسامة داريتها بصعوبة، وتصوَّرت الماجدات وقد ازددن فخراً بانضمام ساريِ إلى جنسهنَّ. ثم أدرت وجهي في أنحاء الغرفة لعلَّ هناك باقة ثالثة باسم الملحق العسكري. فالمريض، مهما كانت علَّته، هو جنديّ في الجيش الذي يباد بالتقسيط... جنديّ خلع الخاكي وارتدى التنورة.

نيالها أمك يا ساري!



٢٤

استيقظ زمزم من القيلولة ونظر إلى ذراعه الممدودة على السرير، فتعرَّق عرقاً بارداً... كانت هناك ريشة بيضاء رصاصية تستقر على لحمه الأسمر المكشوف. ولوهلة تصوَّر، وهو بعدُ بين الغفو والصحو، أنَّ ريشاً أخذ ينبت على جلده.

يروي لي حنقباز السماوة هلوساته وحكاياته العجيبة التي لم تعد تفارق رأسه منذ أن وضعه الرفاق على اللائحة السوداء، فأضحك متشفياً به لأنَّه انتمى إلى حزبهم، ذات يوم.

- طبعاً، تستطيع حضرة جنابك أن تضحك حتى تستلقي على قفاك الأصلع. أما أنا فقد خفت من الريشة وقلت لنفسي: راحت عليك يا أبا الزمازم... تاليها صرت فرّوجة!

- ولماذا اخترت أن تكون فرّوجة بائسة ولم يخطر ببالك ديك هراتيّ، مثلاً، أو طاووس من طواويس بلاط فارس، أو علي شيش من الذي

يأكله القوم هنا في عيد الميلاد، أو عصفور من عصافير الجنَّة... على الأقل؟

- كيف أكون ديكاً أو طاووساً وأنا لا أنعلف سوى أجنحة الدجاج ظهراً وعشيَّة؟ إنَّها أرخص وجبة توصّلت إليها بعد البحث والتقصّي وأكثرها نفعاً للبدن، خصوصاً إذا طُبخت مع العدس. ثلاثة أجنحة للغداء وثلاثة للعشاء، آخذ وقتي في مصمصتها حتى يضمحلّ العظم ويصبح منحوتة سريالية. والكل بفرنكين لا أكثر، مع رغيف بأربعين سنتيماً. كيف لا يخامرني الشك بأنني صرت فرخ دجاجة حين أفتح عينيَّ فأجد ريشة على ساعدي؟ ألم ترَ زلماً ينقلبون نسواناً مثل صاحبك ساري؟ وما أدراني أنّ الريشة جاءتني من بطن المخدّة؟

بدأ الأمر مثل مزحة عابرة... هلوسات تبعث على الضحك وتهيؤات قد تخطر لأيٍّ منا. لكن الهلع راح يتملّك زمزم ويجعله جرذاً يخاف من خياله. بدأ يحدثني عن أشخاص يراقبونه ويتتبعونه في الطريق ويجلسون، قبالته، في عربات المترو، ثم ينزلون وراءه ويختفون في ظلام الأزقّة. وكان يروي لي قصصاً عن مكالمات هاتفية تأتيه ليلاً، ونساء يتحرشن به لهدف غامض، وباعة يقدمون له الحلوى بحجّة أن يتذوّقها في حين أنهم يريدون تسميمه.

- هل تعرفهم يا زمزم؟

- إنهم الأشخاص ذاتهم الذين كانوا يريدون أن يغسلوا دماغي...

- وهل دماغك الحنقبازي قذر إلى هذا الحد؟

يثور المسكين من استخفافي بالتهديدات التي يتصوَّر أنه يتعرَّض لها، ويقسم ألاَّ يكاشفني أموره الخطيرة بعد ذلك، ويقوم لينظر من النافذة باحتراس، مثل أبطال الأفلام البوليسية الذين يلاحقهم الأشرار باستمرار، حتى ولو ذهبوا إلى بيت الخلاء.

يتطلَّع من النافذة ويوشوش:

- ها هو يقف هناك... مختبئاً وراء تلك الشجرة... ألا تراه؟ لقد رآنا ننظر في اتجاهه فمشى مبتعداً في اتِّجاه شارع «كورفيزار»... إنّه صاحب السترة الجلدية، هو نفسه الذي تتبَّعني في المدينة الجامعية أمس...

حتى الخاتون لاحظت اضطراب نفسية زمزم، فدقَّت بعصا المكنسة ثلاث دقَّات على أرض شقَّتها، وهي علامة بيننا تعني «إصعد لعندي»، فصعدت بعد انقطاع وتلكُّؤ، واستسلمت للعتب الرقيق الذي كالته لي بمكيال أهل الأصول، وأنا أهزُّ رأسي موافقاً على كل ما تقول من عبارات التأنيب، ثم انعطفت في حديثها، فجأة، إلى موضوع زمزم:

- أحوال صديقك لا تعجبني. صار مشخوطاً وذا لسان زفر. لقد أحببت دائماً نزواته الكلامية ونكاته الحلوة، لكن ما أسمعه منه الآن يخدِّش أُذني. لم يعد زمزم الذي أرتاح له وكأنَّه ولدي أو من أحفادي.

لما اشتدَّت عليه الوساوس، نصحتُه بأن يذهب لرؤية طبيب نفسانيٍّ، فشتمني وشتم أجداد سوزان، صديقته الفرنسية التي اقترحت عليه

أمراً مماثلاً.

- لست بالمريض ولا المسودن. أنا مستهدف منهم. لماذا لا تريدون تصديقي؟

- من هم؟

- أولاد القحبة الذين يريدون إعادتي إلى الحظيرة النجسة... حظيرة الأفاعي.

بدأت أخاف عليه خوفاً حقيقياً عندما راحت تصلني أخبار معاركه في المقاهي وشتائمه التي لا تقف عند حد والكلمات البذيئة التي يوجهها إلى رفاقه القدامى حيثما قعد وقام. وكنت أعرف أن بينهم شقاوات أشراراً لن يحتملوه طويلاً، وأن ساعة تأديبه و«بسطه» بسطة تاريخية... آتية لا ريب فيها. لكنني كنت عاجزاً عن حمايته، ولا أملك وسائل الدفاع عنه، فلا أنا من أصحاب العضلات المفتولة، ولا من المتغلغلين في أوساط البوليس أو التجمعات السياسية ذوات الأذرع الضاربة. لستُ سوى لاجئ يعيش على الهامش، منصرف إلى صحبة القواميس والمعاجم وزجاجات النبيذ. وكم من مرّةٍ سألت فيها نفسي: هل أعيش في هذا البلد حقاً أم إنني سروال عابر معلّق على حبل من حبال الغسيل في إحدى شرفات باريس... وغداً ستلبسني ساقان مجهولتان وتمضيان بي إلى مدينتي؟

٢٥

تواعدت مع ساري على اللقاء عند أول شارع السفارة . سأذهب معه لتغيير جواز سفره واستخراج جواز يحمل صورة جديدة له واسما مؤنثاً. وكان قد ألحَّ عليَّ بأن أدخل معه إلى مبنى القنصلية وألاّ أكتفي بانتظاره في المقهى... كما المرَّة السابقة.

رأيته يخرج من فوهة المترو فلم أعرفه حتى أشار لي بيده وهو يتأرجح فوق الحذاء العالي. كان اللوتي قد أصبح فتاة جميلة تلفت النظر وهو يرتدي بنطلوناً أخضر ضيقاً مع بلوزة بلون حب الرمان، وقد سرَّح شعره الطويل في ضفيرة تنساب على عنق مكشوف. وكانت عيناه مرسومتين بالكحل العربيٍّ مثل سميرة توفيق في «بدوية في باريس».

تورَّد خدَّاه وهو يراني أحملق فيه بدهشة ريفيٍّ يرى، للمرَّة الأولى، نساء المدينة السافرات. وتضاحك وهو يدور حول نفسه مثل عارضة

أزياء، ثم فتح حقيبة يده وأراني صورته التي التقطها حديثاً.
قال إنه اتّصل بالقنصل ورتّب الأمر معه، مسبقاً، وإن الإجراء لن يستغرق أكثر من ربع ساعة. ولكي يحثّني على مرافقته قال إنّ القنصل طلع من أصحابي، فقد سأله عنّي وأخبره بأننا كنا نجلس على مصطبة واحدة في المدرسة الثانوية.

- في الثانوية... ما اسمه؟

- طرّاد الصافي... يقول إنّه مشتاق لك كثيراً ويودّ لو يراك.

تذكرت وجهه حالما سمعت الاسم، وهالني أنه صار قنصلاً في باريس، فقد كان طرّاد الصافي شاباً طيباً وابن ناس مستورين، وهذه وظائف حزبية خاصة لا يصلها المرء بحسن النيّة، دائماً.

ولعلّ فضولي في اختبار التحولات التي طرأت على صاحبي القديم هو الذي قادني إلى التسلّح بشيء من الشجاعة، أو من عدم الاكتراث، ودخول المبنى الجهنميّ الذي كنت أحاذر المرور، مجرد المرور، بالدائرة المحيطة به.

تعمّدت البرود في المصافحة، لكن طرّاد الصافي استقبلني بالقبلات مما أكّد شكوكي في أنّه أصبح رجلاً قوياً لا يهاب التقارير التي ستكتب، حتماً، عن صداقته لشيوعيٍّ من أمثالي، لا يؤمن بتوجّهات الثورة وحزبها القائد.

وقام القنصل بنفسه وجاء لنا بالشاي وجلس معنا، خارج طاولته الرسمية، على الأرائك الصفراء الضخمة الموجودة في المكتب. ثم تناول من جيب سترته سبحة راح يديرها بين أصابعه، وقال:

- كيف الحال ؟

- أنتم أدرى.

قلتها بخبث ندمت عليه في الحال. إذ لم يبدر من الرجل ما يستدعي الكلام المبطَّن. لكنَّه ابتسم وردَّ بهدوء مدروس:

- نعم... كل الأخبار لدينا... لكننا نعرف العراقيين الطيبين ولا نصدِّق كل ما يُنقل إلينا.

كان يتحدَّث بصيغة الجمع، وبمنتهى الثقة بالنفس، وكأنَّه الناطق باسم الدولة أو باسم جهاز مخابراتها، فعاودني الشعور بالضيق ولعنت ساري الذي قادني إلى هذا المأزق. وقفزت من أدراج ذاكرتي حكايات كنت أسمعها عن معارضين تم استدراجهم إلى هذا المبنى ثم جرى تخديرهم وشحنهم إلى بغداد في صناديق مماثلة لحاويات الدجاج المجمَّد الذي تصدِّره فرنسا بالأطنان إلى بلادنا. ولم يعاملني طرَّاد مثل دجاجة، ولم يخدِّرني أو يشحنِّي إلى أي مكان. بل قام إلى مكتبه وراح يسجِّل البيانات الجديدة لجواز ساري.

- الاسم الجديد يا آنسة ؟

- سارة... سارة نايف محمود.

- اسم جميل... مثل ساري.

- والدتي أيضاً تحب اسم ساري لإعجابها ببطل مسلسل تلفزيوني يحمل الاسم ذاته.

- زوجتي تحب هذا المسلسل أيضاً... بل إن نساء كثيرات أطلقن اسم ساري على مواليدهن تيمُّناً ببطله... ما تاريخ الولادة؟

- الاسم والجنس تغيرا يا أستاذ... أما بقية البيانات فهي ذاتها.
وضحك طرّاد على نفسه فلم يعجبني التبدُّد السريع للكلفة بينه وبين سارة، ولا الحديث التلفزيوني التافه الدائر بينهما، ورحت أشغل نفسي بتأمل اللوحات المعلقة على جدران الغرفة، وأنظر بضيق إلى صورة كبيرة لصدّام ارتفعت فوق المكتب، يرتدي فيها عقالاً عربياً أحمر ويحتضن ابنته الصغيرة. وبين لحظة وأخرى، كان هناك من يمدُّ رأسه إلى حيث نجلس لكي يرى، رؤية العين، الولد الذي تحوّل إلى بنت على نفقة السيد الرئيس.

ولتحاشي نظرات المتطفلين الكثر، ركّزت عينيَّ على استكان الشاي الموضوع أمامي، لم يُمسّ، واكتشفت أنه يحمل نقش النخلة التي كان مقدراً لها أن تكون شعاراً لمؤتمر عدم الانحياز الذي ألغي انعقاده في بغداد، رغم المبالغ الطائلة التي ضخّتها حنفيّة النفط عليه.
انتهت الإجراءات الرسمية وتسلّمت الآنسة سارة جوازها الجديد. وقمنا لنغادر المكان الخانق فاستوقفني ابن الصافي وأبدى استعداده لتجديد جواز سفري متى أشاء. وختم عرضه السخيَّ بالعبارة الحقيرة: «نحن بالخدمة». ثم صافحني وطبطب على ظهري في ودٍّ مفتعل... ورافقنا حتى درج البوابة الخارجية الثقيلة المصفّحة.
سرت على الرصيف الضيّق، إلى جوار سارة، وطقطقة كعب حذائها تدوزن خطواتنا. كانت تحلّق في السماء السابعة. وكنت أرمقها بطرف عيني فأتعاطف مع سعادتها، تارة، ويأخذني الحنق عليها تارة أخرى.

والغريب أنَّ تلك الأحاسيس المتناقضة لازمتني طوال معرفتي بها، قبل التحوّل وبعده.

انقضت المهمة الثقيلة، وها هي تقبض على هويّتها الحقيقية بيدها، وتدعوني للاحتفال بالمناسبة، وأنا منقاد إليها وغير قادر على إزاحة طرّادٍ الصافي من رأسي. وكان يجدر بي أن أتركها وأذهب إلى شقّتي. لكنّها سحبتني من ذراعي إلى مقهى صغير يطلُّ على حدائق جادة «فوش»، قرب فوهة المترو، وطلبت كأسي شمبانيا، بنبرةٍ حميمة، وكأنها تطلب يد النادل. ثم قالت لي وهي ترفع كأسها وترنّه بكأسي:

- على حساب السيد الرئيس... أليس هذا ما تقوله دائماً؟

- بل نشرب بهناء وبدون منغّصات وطنية... أرجوك.

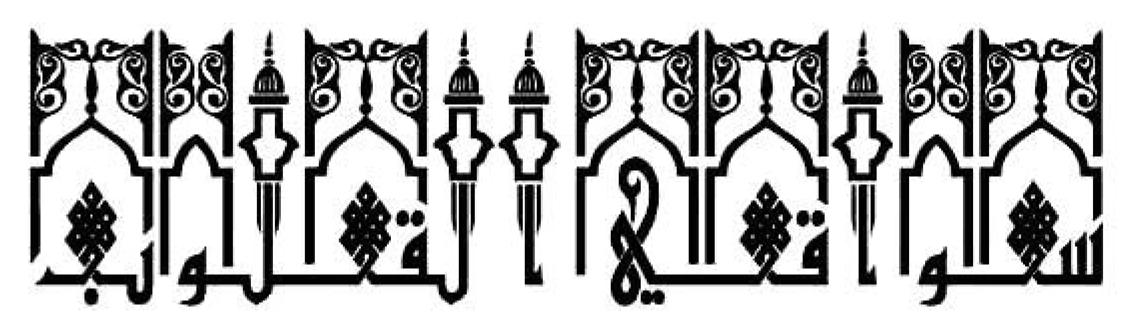
- لولا السيد الرئيس، لما خرجت أنوثتي من شرنقتها، أفلا يحقُّ لي أن أعترف بالفضل؟

رشفتُ الرشفة الأولى المنعشة من المشروب الأثيري وتمهلتُ في الرد، ثم قلت بنبرة فيلسوف:

- لو نظرنا إلى الأمر من زاوية مختلفة لقلنا إنك بسببه، السيد الرئيس، خسرتِ امتيازات الرجل وفقدتِ عرش الفحولة السامي في بلادنا.

- بل تخليت عن العرش بكامل إرادتي، وخسرت امتيازات الرجل، طوعاً، لأكسب نفسي.

أي شيطان علّم هذا الغلام الوسيم المحتال... أسرار الكلام؟



٢٦

امتدت المائدة، وسط الصالة، عامرة بأطايب الطعام والشراب، ومغطاة بمفرش أبيض مُنشًى ومزيَّنة بباقات الورد كما يليق بمائدة عرس أن تكون. ففي ذلك اليوم، ستُزف كريستين دو كاسان فواساك، سليلة الأسرة الفرنسية العريقة، إلى محمد جميل بن رايس، العامل المغربي المهاجر الذي يجيد فنون الغرام.

لم تكن قصة حبّهما خالية من الشوائب والأحقاد، بل إن صديقات العروس يعرفن أنّها كانت تحب عبدالمجيد، شقيق محمد، وقد ترك ثمرة في أحشائها. لكنَّ عبد المجيد مناضل تنتظره مهمّات كبرى، يخطب في الجماهير عن الشرف والبطولة والكرامة الإنسانية، ويَعِدُ المساكين بغد أفضل.

وقد تعلّل عبدالمجيد باحتمال ضياع مستقبله السياسي إذا هو عاد إلى الوطن متأبطاً ذراع زوجة فرنسية. لذلك قرَّر أن يزوِّج حبيبته إلى أخيه محمد، إنقاذاً لسمعتها بعد ظهور بوادر الحمل عليها.

أما أسرة كريستين، فلم يكن يقلقها أن تحمل الابنة جنيناً بدون زواج. بل العيب هو أن الأب مهاجر عربي، لا في العير ولا في النفير. إنَّ أخاها بول، مثلاً، خريج مدرسة البوليتكنيك الرفيعة، يؤمن أنَّ على السود أن يبقوا مع السود، والبيض مع البيض، والفرنسيين مع الفرنسيين، والعرب مع العرب. وكان الشقيق الآخر، برونو، يفقد أعصابه كلَّما تذكَّر أنَّ شقيقته تحبُ عربياً، ويقوده ذلك إلى استرجاع كل إحباطاته وخسائره الشخصية في الحياة.

لكن كريستين انتصرت لقرارها، وجاء يوم العرس الموعود، ووصل العريس ووالدته المغلوبة على أمرها، ومعهما أخته الصغيرة التي ولدت في فرنسا وسُمِّيت صفيَّة في البيت، وصوفيا خارج البيت. وتقابلت العائلتان على المائدة المديدة، لتحتفل كلٌ منهما على طريقتها وحسب مزاجها و تقاليدها.

غنَّت أم العروس قطعة من أوبرا كارمن، وأدَّت شقيقة العريس وصلة من الرقص الشرقي، ثم مدَّت يدها وسحبت كريستين لتشاركها الرقص. ولبَّت العروس الدعوة وبدأت تقلِّد راقصات هزِّ البطن اللواتي رأتهنَّ في الأفلام. وتحت إلحاح التشجيع والتصفيق، صعدت لترقص فوق المائدة، على إيقاع أغنية عربية. لكن حركاتها وفرحتها كانت فوق طاقة أخيها برونو على الاحتمال، فتناول سكيناً وطعن شقيقته فوق مائدة عرسها.

نزل الستار على المسرحية التي دعوت سارة إليها في «الشاتليه»،

مستعيداً الأيام الطيبة القديمة التي كنت أتردَّد فيها على المسارح ودور السينما مع سراب. لكن دموع سارة التي تأثَّرت لمقتل بطلة المسرحية أفسدت، في ثوان، الساعة التي صرفتها في تلوين وجهها. وكان لزاماً عليَّ أن أتصرَّف مثل جنتلمان من جنتلمانات الأفلام وأن أقدِّم لها المناديل الورقيَّة، إذ لا مناديل غيرها عندي، وأن أهدِّئ من روعها وأنا أكظم غيظي من هذه الحساسية النسائية المفرطة التي تبدو أصيلة لديها وكأنها ولدت معها.

هل تمثِّلين عليَّ، أنا، يا سارة يا بنت نجوى؟ أم أنَّ هنالك أمراً فيك لا أفهمه؟

أدهشتني شهيَّتها للأنوثة، وذلك الاستعداد الفطري لديها للضعف والرقَّة وتسبيل العينين. وسحرتني قدرتها على الانسحاق تحت سطوة الرجل، كأنَّها عاشت كل دقيقة مضت من وجودها وهي تنتظر استعادة تلك المرأة المُستلَّة من أضلاعها، أو التخلُّص من الرجل الكامن بين ساقيها. حتى إذا تحقق لها ما تلهَّفت شوقاً إليه، رفعته راية مظفَّرة وسارت به، مرفوعة الهامة، إلى أمام.

وها أنا، يا سقم حظِّي، الرجل الأول الذي تحاذيه وتجرِّب فيه أنوثتها الصارخة المكتسبة بالعناد وتحمُّل ألوان الهوان. لكنَّ دوري هذا لا يروق لي، وهو يضعني في مكان رماديٍّ لا أجيد التموضع فيه، وفي حيِّز فضفاض أعجز عن أن أتمدَّد فيه وأن أشغله. بل إنني ما زلت أحاول أن أبحث في هذه المرأة المجاورة لي عن ساري الذي كان، فلا تطلع لي سوى سارة... سارة الصبيَّة الفوّارة التي لا أعرف

موقعي منها ولا تتيح لي فكاكاً لكي أتنفّس بملء صدري.

وسارة تودُّ لو تلتهم باريس.

وسارة تتجمَّل ليل نهار.

وسارة تصبغ شعرها الأشقر بلون أصهب.

وسارة تريد أن تحبَّ الرجال.

وسارة تنوي المضيَّ أعمق فأعمق في أنوثتها.

وسارة تتوقَّع منِّي أن أكون الجسر الذي تعبر عليه من ضفَّة جنسها إلى أبناء جنسي. وأنا مرتعب من كل هذا الهوس الوجودي وغير مستعدٍّ له. أتفاداها فتقتحمني لزجة ماكرة مثل رطوبة بحريَّة، وأسايرها فتقضمني بشهية وحشية كما تُقضم رمانة غير مقشَّرة.

٢٧

«هلا بيها الجمهورية... الجمهورية... آه...».

بهذا المطلع من نشيد وطني منقرض كانت له طنَّة و رنَّة، استقبلتني الخاتون وأنا أدلف من باب شقّتها مفسحاً في المجال لكي تدخل سارة قبلي، كما تقتضي الأصول، النساء أولاً. ولم تكتف سارة بمصافحة ربّة البيت التي تفرش أمومتها فوق رؤوسنا، بل مدّت شفتيها المصبوغتين حتى الطفح وقبّلت الخاتون أربعاً.. كما تقتضي الأصول.

وشربنا نخب نجاح العملية. وقامت سارة بكل دلال وأشارت للمرأة العجوز أن تتبعها إلى غرفة داخلية. كانت تريد أن تكشف لها عن كنزها الأنثويّ الجديد. وسارت الخاتون وراءها و هي تتعثّر خجلاً، ثم عادت إلى كرسيّها ولبدت فيه، ذاهلة التقاسيم، كأنها رأت إبليساً.

كنت قد اتصلت بزمزم لكي ينضمّ إلينا، مثل أيامنا الجميلة الماضية،

فتأخر حتى أعتم المساء، ثم جاء وهو ثمل، مرتخي اللسان، وشرع يغازل سارة غزلاً ماسخاً. لكنَّ الضيق لم يبدُ عليها من عباراته ذات المعاني المبطَّنة، بل كانت تكركر وهي توجِّه نحوه نظرات أنعسها النبيذ.

لم يفتني أنَّ ملامح الخاتون قد تبدَّلت ولم تعد رائقة كما هي عليه في السهرات التي تجمع شملنا. وأردت أن ألطِّف الجو بإعادة ترديد الأغنية المنقرضة التي استقبلتنا بها... «هلا بيها الجمهورية... اااه...» لكن عيار زمزم كان قد أفلت من السيطرة، فوقف ورفع سبابته وأدارها إلى الخلف وهو يلوك الكلام لوك السكارى:

- مؤخرتي هذه أنظف من كل الجمهوريّات!

نهضت الخاتون وجرجرت خطاها إلى غرفتها بدون تحيَّة أو استئذان. وقمت وسحبت سارة من يدها متمنياً لزمزم أن يصبح على خير، وخرجنا بسرعة قبل أن يتاح له اللحاق بنا. ولو فعل فإنني كنت مستعداً لضربه وفقدان صداقته إلى الأبد.

نزلت الدرج ودخلت شقَّتي فدخلت سارة ورائي، بدون دعوة، واستلقت على الكنبة واستغرقت في الضحك الذي يثير الأعصاب.

- لماذا تضحكين كالبلهاء؟

- لأنك غيور!

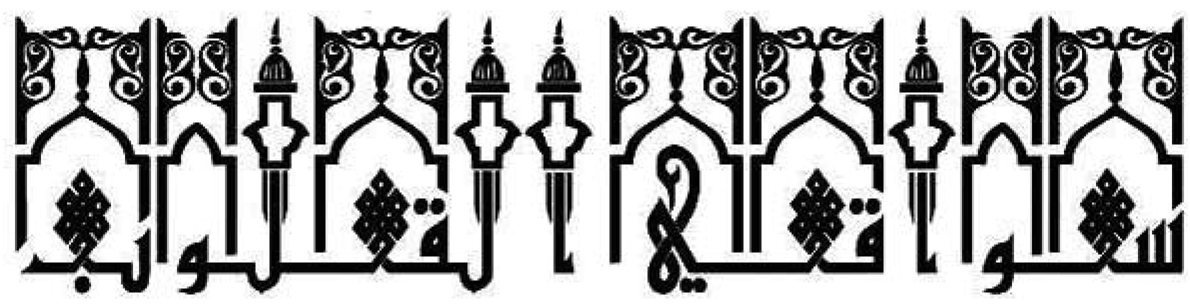
وددت لو أضربها هي أيضاً... لو أضربه و أحطِّم وجهه الجميل وأفقأ عينيه الفاجرتين اللتين تتحدياني. لو أنتزعه من استرخائه المستفزّ

وألقي به من النافذة إلى الشارع . لو أرفع سماعة الهاتف، في نصف الليل، وأطلب بغداد وأقول لنجوى: «استعيدي هديتك المسمومة ودعيني لحالي». لكنَّه كان قد أغفى مثل طفلة كبيرة هدَّها اللعب، وانفرجت شفتاه عن تنفُّس منتظم، تاركاً إياي وحيداً مع ورطتي بنفسي.

ذهبت إلى المطبخ وملأت كأساً بالماء المثلَّج وعدت وجلست على المقعد المقابل للكنبة وأنا أتأمل سارة وأكتشف كم أنها غدت شبيهة بنجوى، نجوى قبل عشرين سنة. ولم يكن ذلك الشبه ليريحني أو يداعب ذكرياتي، بل هالني أن أهجس بما له من سطوة عليَّ.

ماذا دهاني؟ إن غيمتك يا سراب ما زالت هائمة في سماء هذا المكان، فهل أصابني مسّ بسبب غيابك عنِّي وزيَّن لي ما ليس لي؟ ولماذا لا يستأهل الممسوسون شيئاً من اللذائذ الصافية المصطفاة، مثلما كان حالي معك، إذا هم نظروا في مرآة أنفسهم ولم يعثروا عليها؟

ضيَّعتني سارة عن نفسي وها هي تبدد فضّة مرآتي. تجرفني إلى شاطئ ملتبس لم تطأه قدماي وتهيل الرمل على جفنيَّ. تتلاعب بوحشتي وتغرز أنوثتها المغلّفة بالسيلوفان في بؤبؤ عيني. تمدّ يدها وتسحبني إلى أماكن رجراجة أتوجس منها، فلا تتركي يدي يا سراب. يا سراب لا تتركي يدي.



٢٨

من أيٍّ طينة عجيبة خلقنا الله، نحن العراقيين؟

إنَّ كل واحد فينا قصةً في حد ذاته. وأنا أقلِّب الصفحات وأقرأ قصةَ سارة، وقصةَ زمزم، وقصةَ سراب، وقصتي. وكلُّنا في كفَّة وقصةَ كاشانيّة خاتون وحدها في كفَّة. وإلا فهل يعقل أن تطلع عليَّ جارتي العجوز بهذه المفاجأة التي لا في البال ولا في الخاطر؟ وأي أرانب ومناديل أخرى تخبئها لي في قبعتها؟

كان ساعي البريد قد طرق بابي وهو يحمل رسالة مسجّلة باسم الكونتيسة دو سافينيي. وقلت له إنه قد أخطأ في الشقَّة، بل في العمارة كلِّها، إذ لا توجد فيها كونتيسات ولا من يحزنون. لكنَّه أصرَّ على أنَّ العنوان صحيح، وأراني المغلَّف الفخم فقرأت عليه رقم عمارتنا، و«بولفار بلانكي» في الدائرة الثالثة عشرة، واسم السيدة الكونتيسة كاشانية دو سافينيي، مكتوباً بخط أنيق كأنه بريشة خطاط.

آنا أخوك!

خرجت منّي صرخة الدهشة تلقائياً فتراجع ساعي البريد فزعاً وكاد يسقط في بئر الدرج، لكنني سحبته من كمٍّ سترته الزرقاء وأشرت له بإبهامي إلى الشقة التي تقع فوق، وأنا لا أجد ما يمكن أن أنطق به سوى لغة الإشارة.

كونتيسة كاشانية خاتون؟ والله حلو!

لو جيء لي بمصباح علاء الدين، في ذلك الصباح الغائم، المصباح الأصلي لا المصنوع في تايوان، وقيل لي إن الخاتون فرَكَته وطلع لها المارد وقال لها: شبّيك لبّيك، وأسبغ عليها اللقب النبيل، في غمضة عين، لأطلقت من بين شفتيَّ عفطة كراديَّة تصل أصداؤها إلى الرصيف المقابل. لكن حكايات الجن شيء وهذا المظروف الذي شاهدته بأم عيني... لا... ما معقولة.

صعدت إليها قبل حلول المساء وبيدي قنينتي، ولما فتحت لي الباب انحنيت انحناءة مسرحية على طريقة نبلاء القرن السابع عشر، وبقيت منحنياً لا أعدِّل هامتي حتى جلجلت ضحكتها فوق رأسي ومنحتني البركة.

- بونسوار مدام لا كونتيس.

تلقَّت تحيتي وفكَّت لغزها، في الحال، بحسِّها اللمَّاح، قائلة:

- بونسوار مسيو، إذا كنت قد جئت لزيارة الكونتيسة فإنها غير موجودة. أمّا إذا أردت السلام على الخاتون فأهلاً وميَّة مرحبا...

سهرت معها رأساً لرأس، «تيت آ تيت» كما يقول الفرنسيون،

وشربنا وتحدَّثنا كما لم نتحدث طوال سنوات، أي منذ أن جمعتنا الجيرة العمودية، هي في الشقة الفوقانية وأنا في التحتانية، أسمع الدبيب، على سقفي، إذ يئزُّ خشب الأرضية تحت خطواتها فأعرف أنَّ لي رفيقاً في هذه المدينة المؤلَّفة من زنازين وأقفاص متجاورة مقفلة على ساكنيها.

تحدَّثنا مثل روحين شقيقتين لا تقف بينهما واهيات الفوارق في السنِّ أو الدين أو المنبت، ورحنا نعدِّل تلك الأحرف المقلوبة أو المبتلعة التي لم نلقِ لها بالاً في أحاديثنا الماضية، ونضع النقاط عليها حيث يجب، وكأنَّنا كنا نتكاشف بعد أن حثَّنا وازع مجهول على أن نرفع الجيرة المجرَّدة بيننا إلى مرتبة القرابة والحميميَّة.

هل أقول إنَّ كل الذي سمعته من الختون من قبل، أو الذي عرفته عنها، أو الذي رَوَته أمام كاميرا زمزم، كان قطرة في بحر تلك الأمسية التي لا وصف لعذوبتها؟

لم يكن كلُّ ما رَوَته كاشانيَّة بنت ميساك سمَّاقيان جديداً عليَّ. كنت أعرف بعضاً منه، و غابت عنّي أشياء كثيرة، سهوتُ أو تحرَّجتُ فلم أستفهم عنها أو أستزد منها. كنت أعرف أن زوجها عمل في حقل الآثار في العراق وتعلَّم العربية، وكان يوشك على دخول الدير في الموصل، مترهِّباً منصرفاً عن متع الدنيا، قبل أن يراها فتطير الملائكة من رأسه إلى غيرما رجعة وتحطّ، محلَّها، عصافير الحب. لكنَّها لم تقل لي إن اسمه الكامل هو الكونت فيليب كريستوف دو سافينيي، ولا أنا سألتها عنه، كما لم أسألها عن ذرِّيتها منه، وافترضت أنها لم

تنجب أبناءً، طالما أنها لم تأتِ على ذكرهم.

وها هي تقول لي، في مساء إماطة اللثام هذا، إنّ لها ابنة في تورنتو متزوجة من بروفيسور كنديٍّ من علماء الرياضيّات ولهما أولاد ثلاثة. ثم سكتت برهة قبل أن تُضيف بأنَّ السماء كانت قد أعطتها، عدا البنت، إبناً بكراً يدعى جان ميساك، على اسم أبيها الذي حصدته المذبحة، لكنَّها فَقَدَته عندما كان طبيباً متطوعاً في أثيوبيا. مات متأثراً بعدوى حمّى غامضة، قبل بلوغه الثالثة والثلاثين بيوم واحد.

سكتُّ سكتة أهل الكهف و أنا لا أدري بم أُجاري نبع الحزن الذي فجَّرته الذكرى في صدر جارتي. ثم تمتمتُ، بعد أن عثرتُ على بعض لساني:

- لقد أعلمني قلبي، يا كاشانيَّة خاتون، بأنَّ وراء حنانك الفائض لوعة ما...

- أنت أيضاً خوش ولد وابن حلال، وعندك، مثلي، لوعة دفينة.

- لنقل إنَّ اللوعة تقارب ما بين القلوب المفطومة من أحبَّائها...

- ألم تسمع بأنَّ القلوب سواقٍ؟

قالتها بتلقائية، كما تبزغ الحكمةُ في اللحظة المناسبة، دونما تكلُّف، من أفواه نسائنا المبتسمات أو المبتئسات، الواثقات من صدق هذه النبوءة الشعبيَّة... تماماً مثلما فاض المَثَل ذاته من شفتيْ سراب، ذات ليلة مباركة، فذكَّرتني بعمَّتي التي أخذتني تحت جناحها، وبأمِّي التي ماتت ولم أشبع منها، وبجاراتنا في الكرَّادة والزويَّة واليرموك، وبكل امرأة مفتّحة باللَّبَن، تفوح رائحة صابون الرَّقي من ثنايا عباءتها.

تأكدتُ أنَّ جارتي الأرمنيَّة، كما قال زمزم، كنز حزين مطمور يدعوني لاكتشافه. ورفعت كأسي لأشرب نخب سواقي القلوب التي لا بدَّ أنَّها تتكفَّل بإطفاء نار الوحشة، وقلت لها مشاكساً ومواسياً:

- وإذن فأنت لا كاشانية، ولا خاتون، ولا كونتيسة... أنت أم ميساك.

- ليش تدوِّخ رأسك بهكذا ألقاب؟ أنا هي العجوز التي تقاسمك الآن قنينة النبيذ الطيِّبة هذه، وكل ما عداها ترّهات.

- و ما اسم ابنتك التي في كندا ؟

- لا اسم لها. نسيتها لأنَّها ابنة عاقَّة.

جاءت عبارتها باترة تقطع الطريق على أي استفسار آخر. ثم قامت وجرجرت قدميها الى الجارور الموجود تحت التلفزيون وفتحته وراحت تعبث بما فيه من مفاتيح قديمة وقطع نقدية وكأنها تريد أن تحدث أي جلبة تصرف ذهنها عما يدور فيه . وفجأة استدارت نحوي وقالت:

- في هذا الكون أقوام وشعوب كثيرة خلقها الله . عرب وفرس وأفارقة وإنكليز وبرتكيش وصرب وغجر وشعب ياجوج وماجوج... فلماذا لم يقع اختيار التي لا اسم لها إلاّ على رجل من أحفاد باشوات العصمليين؟

عادت وجلست وطردت السحابة الداكنة عن وجهها ومضت تحدثني عن ولدها الذي رُزقت به على كِبَر، بعد أن قطعت الأمل في الخلفة والأمومة. ثمَّ نصحتها امرأة كلدانيَّة من أهالي ألقوش بأن ترتقي،

حافية، الجبل الصاعد إلى دير مار متّى، مثل النساء العواقر من قرى الموصل، وأن تُصلّي هناك وتنذر نذراً موصوفاً، وعندها ستنفخ العذراء في بطنها فتحبل بجاه القديسة مريم.

نفّذت الخاتون النصيحة. وبعد سنة من ارتقائها الجبل كان الجنين يلبط في أحشائها، وأنجبت ولداً بهيّ الطلعة، ورث اللقب النبيل عن أبيه دون أن يفقه له معنى. وكبر الولد في بغداد، لكنّه عاد إلى الموصل مع افتتاح كلية للطبّ فيها، مُفضّلاً أن يدرس في مسقط رأسه، وكان يلعب التنس مع نساء الأساتذة الأجانب ويدعوهنّ إلى رحلات للغطس في ينابيع «حمّام العليل» وهو يقسم لهنّ أنّ ماء تلك العين يمنع الشيخوخة ويغسل تجاعيد الزمان. وكنّ يصدّقنه لأنّهن كن مجعدات الوجوه، ولأنّه كان بارعاً في الكلام، وسيماً مثل آلهة إغريقية، وخلطة نادرة لا تشبع الخاتون من التغنّي بها:

– كان «موصّى توصاه»، أخذ شهادة الطب وجاء إلى أعمامه في فرنسا لكي يتخصص في أمراض البلدان الحارة، وهنا اكتشف معنى أن يكون كونتاً وابن كونت، ورأى نوادي النخبة تفتح له أبوابها وبنات الأرستقراطيّة يتودّدن إليه. لكنّه خلّف وراءه كلّ مباهج باريس وذهب ليعمل متطوّعاً في الصومال وأثيوبيا مع زملاء له من الأطباء الذين آمنوا أنّهم رُسُل على هذه الأرض، لا قصابون. ومن هناك كتب لي ليقول إنّه غارق في عشق امرأة أفريقيّة.

– ألم تمنحك هذه الدنيا العجيبة، يا خاتون، حفيداً زنجيّاً؟

– لا، لم تصبر الحياة على ولدي ولم يصبر عليها. وكانت عرّافة

تتكلم السواحيلية قد تنبأت له بأنَّه سيموت في السن التي مات فيها المسيح. ورفض المترجم أن ينقل له نبوءتها، خشية إقلاقه وبلبلة أفكاره، لكنَّه أصرّ على أن يعرف، فلما عرف نزل الكلام من كتاب الغيب إلى أرض البشر، وصار صدقاً.

طالت أقاصيص البوح في تلك الليلة البيضاء، وجفَّ اللسانان ثم ابتلّا بالنبيذ، مرَّة بعد مرَّة، حتى سكرا وتثاقلا. وحدَّثتني الخاتون، وهي في أرجوحة تذهب وتأتي بها بين الأزمان والقارات، عن زوجها الذي أحبَّ العراق حباً يوازي حبَّه لبلده. وأرتني صورة له تحت أقدام ثور مجنَّح في نمرود، ثم جرجرت خطاها إلى خزانة زجاجية وسحبت مجلداً ضخماً بالفرنسية، مسحته بكفِّها وقدَّمته لي. وكان كتاباً مصوَّراً عن الآثار العباسية بقلم وكاميرا الكونت دو سافينيي.

قالت:

- بقينا في بغداد سنوات عديدة بعد أن تقاعد زوجي وداهمته أثقال الشيخوخة، لكنَّهم رفضوا طلبه الحصول على الجنسية. وكان قد قارب الثمانين ويريد أن يموت عراقياً، فلم تتحقق له تلك الأمنية. ثم جاءت قضية طرد صديقه الراهب جان فيِّيه، عالم السريانيَّات الذي أمضى ثلاثين سنة من حياته في الموصل، يقرأ كنوز مكتبة دير الآباء الدومينيكان ويقوم بالأبحاث ويؤلِّف الكتب. ألا تذكر أني كنت قد حدّثتك عنه؟

- لقد سمعت عنه ورأيت أحد مؤلفاته في المكتبة الوطنية...

- استدعوه، ذات يوم، إلى دائرة الأمن وأبلغوه بأنّ عليه أن يغادر العراق خلال أربع وعشرين ساعة. ولم تنفع كل وساطات أصدقائه وتلاميذه المتنفذين في استبقائه. وفي نهاية المطاف نصحوه بالسفر لأن بقاءه قد يهدّد حياته ويضعه في مواجهة أناس لا مكان للمروءة في قلوبهم.

- لماذا طردوا رجلاً عالماً مثله؟

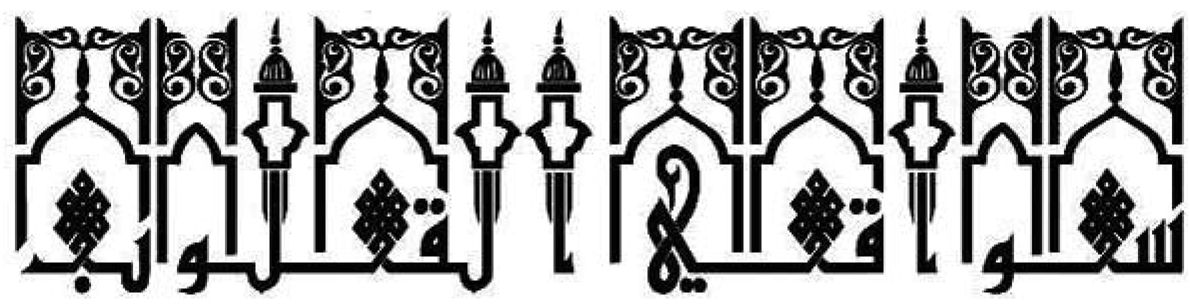
- قالوا إنّه نشر دراسة في مجلّة فرنسية تُشكّك في الصلة بين الآشوريين الحاليين الموزعين ما بين إيران والعراق ودول أخرى وبين الآشوريين القدماء الذين أقاموا حضارتهم بين النهرين. ولم يعجب هذا الكلام بعض المنتفعين من ميراث مزعوم فاشتكوه عند الرئيس أحمد حسن البكر... وكان ما كان.

تأتي الخاتون بقنينة نبيذ ثانية وتفضُّ سدّادتها بمهارة صيّاد يسحب شصّاً عنيداً، ثم تواصل حكايتها مثل شهرزاد أرمنية دفنت شهريار بيديها وعمّرت من بعده طويلاً:

- لم يحتمل زوجي تسفير الأب جان فيّيه من بغداد في ليلة سوداء، فلملمنا أغراضنا وجئنا إلى هنا. وبعد سبعة وعشرين يوماً أسلم فيليب الروح في بيتنا الريفي في «آلبي»، ودُفن فرنسياً على غير ما كان يشتهي. أما جان فيّيه فقد ذهب إلى دير في الجزائر، وأحسب أنّه أخذ الموصل معه، في الجيب الملاصق للقلب، بشطّها

ومخطوطاتها وخضرة ربيعيها ومنارتها الحدباء.... مثل هامتي بعد كل هذه السنين.

نفثت عبارتها مثلما تُنفث الحسرة من القلب المكلوم، ومالت بجذعها جانباً كما تميل، منذ عصور، المنارة الموصليَّة التي لم أكن قد رأيتها إلا في الصور... تميل ولا تتهاوى.



٢٩

رنَّ هاتفي رنيناً طويلاً مزعجاً فقمت لأردَّ وأنا ألعن أجداد ذاك الذي يتَّصل بالناس في ساعة متأخرة وفي عز طقس الشراب.

- هلو... هل عرفتني؟

طبعاً عرفته. طرَّاد الصافي. لا بدَّ أنَّه استدّل على رقمي من أحد العسس أو كلاب الحراسة وجاء يغتصب عزلتي لكي يؤدي وظيفة الجاسوس التي أرسلوه من أجلها إلى باريس.

- آسف للإزعاج، لكن لا بدّ من أن نتقابل ونتحدث.

- أنا مشغول يا أخي، هذه الأيام، ولا مزاج عندي لمقابلة أي أحد.

- لكني لست بعيداً، أنا أتكلم من كابينة الهاتف تحت بنايتك، وتستطيع أن تراني إذا نظرت من الشباك...

إبن الحرام الحقير، لن أدعوه للصعود ولو طلعت نخلة في رأسه.

نزلت إليه وصافحته ببرود ورحنا نتمشى على الرصيف العريض المقابل

وواجهته:

- خير؟

- صاحبك زمزم... قل له أن ينتبه لأنَّ الجماعة يبيِّتون له نيَّة سوداء.

- ألا تخجل من لغة التهديد؟ هل تتصوَّر أننا في بغداد وتحت رحمة الجماعة؟

- إسمعني جيداً ويكفي لغواً. لو لم يكن بيننا خبز وملح لما جئتُك في الليل كما يجيء الحراميَّة. ألا تدرك أنني أعرِّض نفسي لداهية في سبيل صديقك ذي اللسان الطويل هذا؟ قل له إنهم سيقطعون لسانه إذا واصل ثرثراته السخيفة ضدهم. ولا تنس أنَّه بعثيٌّ، ولن يُغفر له، أبداً، انشقاقه عن الحزب.

تركت طرَّاد الصافي وحيداً على الرصيف، مقابل الأدراج الصاعدة من البولفار إلى تلَّة «بوت أو كاي» وعدت إلى شقَّتي. ولا أدري لماذا ركبني هاجس حال بيني وبين إشعال النور، ووقفت وراء ستارة النافذة أرقبه وهو على الرصيف، يدخن سيكارة على مهل ثم ينحدر نازلاً في اتجاه شارع «غلاسيير».

لم أترك شتيمة في القاموس تعتب عليَّ، تلك الليلة، دون أن أنزلها على رأسك ورؤوس آبائك الذين خلَّفوك يا زمزم. ولا شكَّ أنَّ الطنين بلغ أذنيك وشقَّ طبلتيهما. أيَّ ورطة أقحمتني فيها يا صاحبي؟ والله لو كنتُ صريحاً مع طرَّاد الكلب لتطوَّعت لكي أشترك في ضربك، بالقنادر وتكسير عظامك مع «الجماعة»، وأنت تعرف أنَّك تستأهل أكثر من تكسير العظام يا قوَّاد.

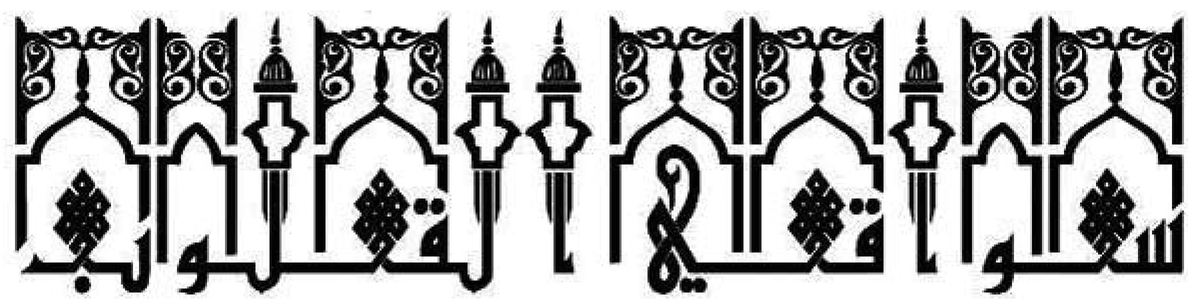
تبخَّرت السكرة الأنيسة من دمي وطار النعاس من عينيَّ بعد تلك الزيارة

تبخَّرت السكرة الأنيسة من دمي وطار النعاس من عينيَّ بعد تلك الزيارة الكئيبة، ولم أجرؤ على الصعود إلى الختون لأن شقَّتها كانت معتمة، فنزلت إلى بار قريب يقع يساراً، في آخر شارع «ليه سانك ديامون» وجلست أستمع إلى فرقة تعزف الجاز هناك. وعندما توقّف العازفون في استراحة وجيزة، تسلل رجل أحدب إلى المنصَّة وراح يعزف، على الأكورديون، بأصابع خشنة مشققة «أنشودة لارا».

أخذني اللحن إلى أيام سينما «غرناطة» في بغداد، وأنا قابع في كرسيٍّ وثير من المخمل الأزرق أتفرَّج على الدكتور جيفاكو وأتابع لارا الجميلة الشقراء وهي تنود وتدور مع استدارات موسيقى موريس جار وكأنها تلفُّ في رؤوس الجالسين. ونهضت جولي كريستي فخُيِّل لي أنَّها قامت من جانبي لتراقص عمر الشريف ولتخلب لبَّه وهي تغرز نظرتها الخضراء الصاخبة في جمرتي عينيه.

تلك كانت رقصتهما الأولى، بينما روسيا القيصرية تنهار على مبعدة خطوات من أقدامهما الدائرة بالفالس، فتتلقاها الموسيقى بين كفّيها بحنوٍّ وتلملم شظاياها الإمبراطوريَّة المسحوقة مثل آنية مهشَّمة من كريستال بوهيميا.

انتهى الأحدب من سحره وراح يدور على السكارى وبيده قبعة مقلوبة. وكان البار يدور والدنيا كلُّها تدور معه، وأنا أدير كلام طرَّاد في رأسي، وأغربله من زوائده، وأعيد وزنه، وأرسم خططاً هوائية هوجاء لحماية صديقي زمزم من بطش «الجماعة».



٣٠

استيقظت من نومتي مخنوقاً، ناشف الريق، مبللاً بالعرق. وكان ما رأيته لا يشبه الأحلام أو الكوابيس التي اعتدت صحبتها في فترات متناوبة من حياتي هنا. الكوابيس المزمنة التي تداهمنا مثل مرض نعتاده ونتعايش معه ولا نأمل منه شفاءً.

رأيتني راكباً في الطابق العلويٍّ من حافلة حمراء للنقل العموميٍّ، في ظهيرة قائظة من أصياف بغداد، عندما لمحت شارعنا القديم في الكرّادة من النافذة المموّهة بالغبار ولطشات الذباب. ورغم أنَّ المحطة لم تكن محطتي التي أقصدها، فقد قمت لأنزل مسحوباً من ردني، مدفوعاً بقوّة عاطفية تشبه الرغبة الجنسيّة التي لا رادَّ لها.

سرتُ خطوات في الطريق العام ثم انحرفتُ إلى شارع تظلّله أشجار ذات خضرة غبراء، تهشّمت أحجار رصيفه وخرجت من مواضعها. لكنني مشيت عليها بدون أن أتعثّر، وكأنَّ قدميَّ مزوّدتان بوسادات هوائية تمتصّ الصدمات.

رأيت صبحي أبو البايسكلات نائماً على عتبة دكانه في مجرى الهواء، وسدرة بيت هنّودي وقد اهترأت أغصانها بفعل حجارة صبيان المحلّة، ودكّة أم علوان بيّاعة المهافيف لابدة في موضعها المعتاد أمام الباب الصدئ لبيت الخوّافات، بنات العطّار، وبعدها دارنا القديمة التي أعرفها من درب سنة و أستدلُّ عليها من بين آلاف البيوت.

لم أكن قد سكنت تلك الدار سوى سنوات قلائل، في حياة أبيٍ، ثم انتقلنا إلى اليرموك وأنا طفل، وهناك شببتُ واندفعت في حمّى السياسة، وصار بيت عمّتي هو بيتي. لكن الحلم أعاد ترتيب حياتي بشكل فوضويٍّ وخلط الأول بالتالي.

سرت إلى الدار ومددت يدي إلى القارعة النحاسية وطرقت طرقتين، ففتحت لي بُنيَّة صغيرة ترتدي دشداشة أرجوانية وصاحت، موجِّهة كلامها إلى مَن في الداخل:

- هذا بابا... الذي جاء.

وتعلَّقت البنيَّة برقبتي وأخذت منيّ كيساً من ورق أسمر، لم أكن أعرف أنّني أحمله ولم أنتبه إليه وأنا في الباص، وقالت:

- لم ينس الحامض حلو...

ومدّت امرأة شابّة رأسها من المطبخ وهي تبتسم بتعب عذب وقالت بصوت نعسان:

- أللہ يقويّك عيوني... ادخل غيِّر هدومك.

دخلت إلى غرفة للنوم لم تكن غرفتي، ونزعت على استحياء

قميصيَ المبتلّ بالعرق وبنطلوني، ونظرت، بحركة عفوية، وراء الباب فرأيت بيجامتي الخضراء المخططة معلَّقة في مكانها، على مشجب لم أره من قبل، وكأنني مَنْ خلعها وعلَّقها في الصباح. ثم ذهبت إلى الحمَّام فغسلت وجهي وعدت إلى الصالة وتغدّيت مع البنت وأمها رزاً وفاصوليا، وشربت لبناً رائباً، وقمت للقيلولة كمن يؤدي دوراً في مسلسل مملٍّ. ولحقت بي المرأة، التي يُفترض أنها امرأتي، وتمدّدت بجانبي ووضعت كفّها على صدري، عابثة بالشعيرات التي هناك وهي تدندن لحناً نسيته. ثم انقلبت فوقي بخفّة وأطبقت بشفتيها على شفتيَّ في قبلة لها مذاق غريب... قبلة امرأة غريبة.

نامت المرأة بعد أن أخذت حقّها الشرعي دونما ممانعة منّي، فقمت على عجل، مثل لصّ مبتدئ يدخل البيوت لأول مرّة، وارتديت ثيابي وخرجت من الدار التي أعرفها من درب سنة. ولم أنتظر الباص، بل أخذت سيارة أجرة إلى اليرموك ونزلت عند دار عمّتي وأخرجت مفتاحي وأدرته في القفل. لكنه لم يفتح.

ضغطتُ على الجرس فانزاحت ستارة عن النافذة المطلّة على الشارع، ولمحت زوج عمتي ينظر نحوي مستفهماً دون أن يفتح الشباك، وكأنّه يخشى أن تتسرب برودة التكييف من الغرفة، وسمعته يقول لعمّتي بأنني ربّما أكون قارئ مقياس الكهرباء. ثم نظرت عمّتي، بدورها، من وراء الستارة، ولم يبدُ عليها أنّها تعرفني، بل لعلّ منظري

كان مرتبكاً ومزرياً بحيث تصوَّرتني مُتسوِّلاً من أهل السبيل، وسمعتها تصرفني قائلة:

- الله يعطيك.

قمت من فراشي وذهبت لأتبوَّل وأشرب ماءً بارداً. فقد كان الكابوس طبعة جديدة لم يمرّ مثلها عليَّ من قبل. ثم وضعت القوري على النار وعدت وتربّعت على الفراش وأنا أحاول استعادة شتات ذلك الحلم الغريب. هل نزل الباذنجان إلى السوق وبلغ بي الخبال حدَّ الكوابيس الميتافيزيقية؟ أين هو بيتي؟ ومن أكون؟ ولماذا يتوجَّب عليَّ أن أنتمي إلى بيت ما، أو إلى امرأة ما، أو إلى بلد من بلاد الله في أرضه الواسعة؟ هل أنا ابن اليرموك أم ابن الكرَّادة أم سليل «بلانكي»؟

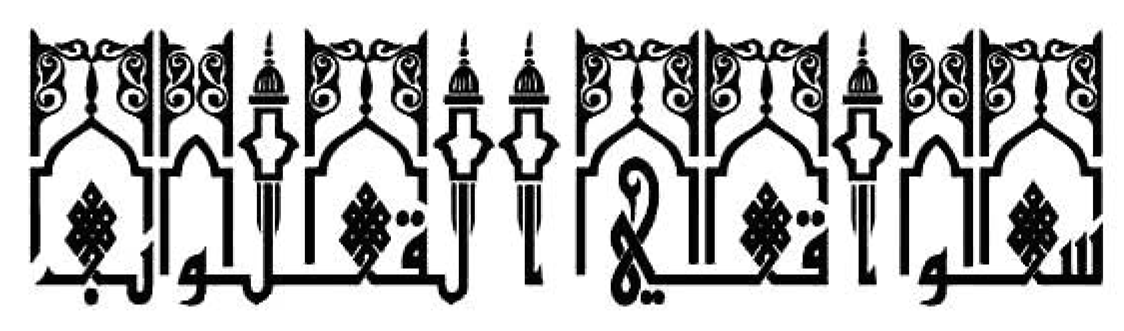
شربت الشاي، على مهل، وأنا أتفكَّر في أمري، وأتساءل لمَ لا يكون لي وجهان وكل الذين حولي يراوحون بين أكثر من سحنة ويتنقلون، بخفَّة، من موقع إلى آخر ومن اسم إلى اسم؟

ساري هو سارة، امرأة خارجة لتوِّها من ورق السيلوفان بعد أن كانت رجلاً، وزمزم بعثيٌّ يؤمن بالعروبة وبالرسالة الخالدة وفي الوقت نفسه منشقّ على حزبه، وسراب هي حبيبتي التي اكتشفت أن اسمها الحقيقي روزا، وحتى الخاتون، جارتي ذات الخطوات التي تدوس على سقفي فأعرف أنَّ هناك مظلَّة تحمي رأسي... هي الكونتيسة دو... لا أدري ماذا...

أين أنا وسط هذا الصابون الزلق الطافح من حولي...؟

أنا الفقير الذي لا يملك سوى جنس واحد وانتماء واحد وسحنة واحدة واسم ثلاثي بدون لقب، حسب تعليمات رئاسة الجمهورية، لأنَّ الألقاب تكشف عشيرة من يحكموننا.

هل هنالك اسم آخر، مجهول أو مخبوء في منعطف ما، يتعيَّن عليَّ أن أكتشفه وألصقه على جبهتي، وأن أتشبَّث به قبل صياح الديك ثلاثاً، لكي أصبح جديراً بهذا العالم المُرَكَّب... المتعدِّد الوجوه؟



٣١

تبهرني سارة وهي تزداد حلاوة في كلٍ ساعة.

أراقب تحولاتها بفزع مثل أب شرقيٍّ يخاف على ابنته الصغيرة التي صحا فرآها وقد غدت امرأة. امرأة تغـوي أباها، وتتباهى أمامه بما تحمل من فواكـه فوّاحة، وتتفرج على صورتها في مرآة عينيه... فتسكر... ويخنقه الهلع.

وسارة لا تتعمَّد أن تغويني. إنَّ الغواية موهبة أصليَّة كامنة فيها، مدسوسة تحت لسانها مثل سكَّر النبات، تتطاير من إشاراتها ونظراتها وهبوب نهديها الجديدين اللذين أهاجتهما الهورمونات، فلا تملك أن تردَعَ غواياتها أو تحبسَ تفجُراتـها.

وسارة تعابث زمزم، وتواعد طرَّاد الصافي، وتتحدث بالهاتف أحاديث ساهرة، على مسمع منّي، مع طبيبها النفسيً، ومع الحلاق الذي يعتنى بتسريحتـها، ومع آخرين لا أعرفهم ولـم أسمع بأسمائهم. أسماء عربيَّة وفرنسيَّة وبين بين. وهي سعيدة وجذلى بما يهبط عليها من نيازك،

جذلاً يرغمني على التعاطف معها وإيجاد الأعذار لها.

أكون قد نويت تعنيفها، وهيأتُ العبارات التي سأقولها لها عندما تأتي. أنت يا عزيزتي أمانة بين يديَّ. لقد أوصتني أمّك بك. أنت في منزلة ابنتي. الابنة التي لم أرزق بها. أنت يا سارة امرأة الآن، وأجمل ما في النساء خَفَرُهنَّ الطبيعيّ... أنت...

سخافات كثيرة لا أنطق بها حين تحضر زاهيَةً مزهوَّة، تنزع القفازين الجلديين وتدسُّهما في جيب معطفها، ثم تخلع المعطف البرتقالي الطويل، ذا القبوعة الطفوليَّة، وتحلُّ اللفَّاف عن عنقها وترتمي على الكنبة، قرب النافذة الواسعة، مكانها المفضَّل ومكاني. بعد ذلك تركل الجزمة الطويلة بنفضات متتالية من ساقيها، وتشبكهما بأناقة عارضة أزياء وهي تنظر لي نظرات مستفهمة.... كيف كان النهار؟

أيُّ خفر طبيعيٍّ وأيّ ضراط أتفلسف بدعوة سارة إليه وهي في عزِّ توهُّجها كأنثى؟ ألا يعنُّ لي، أحياناً، لو أملك ربع جرأتها فأفعل ما أشتهي، غير عابئ بلومة لائم؟ وماذا ستجني سارة من دنيانا البخيلة العجفاء إذا هي سمعت كلامي وأصغت لنصائحي؟

إنَّها لا تتوقَّف عن إدهاشي بما تختزنه من فرائد في كل يوم من الأيام التي تجمعني وإيَّاها. وبقدر جوعها لأنوثة حريرية ملساء تتلفَّع بها، أو تحتمي وراءها، يتجلَّى جوعها للكلام والاستفاضة في شرح المغامرة التي تمرّ بها، ووصف فتنة العبور من ضفَّة إلى ضفَّة.

أسألها باهتمام إنسان مُتحضّر:

- هل ترْوين هذه الأمور لطبيبك النفسيّ؟

- لا، هذه أمور لا تُحكى عبر مترجم.

وأفهم منها أنَّ الطبيب الذي يناسبها هو أنا، والصديق هو أنا، وكاتم الأسرار المفضوحة... أنا.

لكنّي لم أعد قادراً على التماسك أمام هجومها العفويّ ولا على شنّ هجوم مُضادّ. إنّ الدبيب في دمي يجعل مهمتي شاقّة و غامضة، ويُلبسني فروة ذئب يترصد بطفلة غريرة ذات رداء أحمر، بينما سارة تتلاعب بي وكأنني مريضها الملتاع وهي الربّة الواقفة عند رأس السرير، الممسكة بزجاجة الدواء الشافي، تمدّ يدها لي بها، حتى إذا هممتُ بخطفها... أبعدت عنّي الزجاجة.

فاجأتني، ذات مساء، بأنّها تعرف ما كان بيني وبين والدتها. قالت لي، بدون مُقدّمات، كمن يسأل عن أحوال شخص غريب:

- إلى أي حدٍّ كنت تحبُّ نجوى؟

- ما هذا الكلام الماسخ...؟

- ظننتك جريئاً تحب الصراحة، لكن يبدو أنّ أمّي أكثر منك جرأة.

سكتُّ وأشحتُ بوجهي عنها، فزحفت في جلستها والتصقت بي. وبدل أن تواصل تأجيج الجمرة التي أشعلتها بحديثها، أخذت تروي لي حكاية أخرى لا علاقة لها بكلامها الأوّل، عن شحّاذ شاهدته وهو يعزف في رواق المترو لكي يجمع فرنكات قلائل من العابرين.

- تصوَّر أنّني أراه في كل مرور لي بمحطة «الإتوال»، يجلس في الممر ذاته وفي ركن لا يتغيّر، بحيث إنّه إذا غاب ظننتني أخطأتُ في

الاتجاه. إنَّه يلتفُّ بعباءة سوداء سميكة، كأنَّه مطران مهيب، أو سادن متخشّع، أو جان فالجان في مسرحيَّة «البؤساء». وهو يحتضن قيثارته مولياً ظهره للمارَّة، غير آبه بقروشهم المتساقطة على منديله، منصرفاً إلى أنغامه بانهماك شديد مثل موسيقار يعزف على أعظم مسارح العالم وأمام جمهور من الصفوة... لا من المتعبين والمتعبات العائدين بأقدام متورمة من نهارات شقاء لا ترحم.

قلت لها إنَّ أروقة المترو تعجُّ بأمثال هؤلاء، فقالت وهي تهزُّ شعرها السَرِح:

- لا... لا أحد مثله... إنَّ المارَّة يتوقَّفون عنده ويرمون النقود بسخاء غير معهود لأنه يتسوَّل بكبرياء. هل تذكر شخصيَّة صانع العاهات في إحدى روايات نجيب محفوظ؟

- زيطة...؟

- عفية عليك... زيطة الذي يعيش من صنع عاهات للراغبين في امتهان التسوُّل، لأنَّ العاهة تحنِّنُ قلوب المحسنين. هل تذكر كيف جاءه كهل محترم، أبيض الفودين، نظيف الثياب، يطلب منه أن يبتكر له عاهة...؟

- أظنُّ أنَّ زيطة نصح الرجل بأن يتسوَّل بقيافته تلك...

- بالضبط. قال له إن الوقار أكثر مدعاة للشفقة من أيِّ عاهة!

وقهقهت سارة وهي تصفِّق بيديها فوددت لو أسحبها إلى حضني وألعق ضحكتها الرقراقة كما يُلعق دبس التمر السائح من حوافَ الخبز. لكنَّها اعتدلت، فجأة، في جلستها وسألتني بجديَّة ناقد ثقيل الدَم:

- هل تظنّ أنَّ عازف مترو «الإتوال» قرأ رواية نجيب محفوظ؟

تلك الليلة ، بعد أن تلفلفت سارة بمعطفها البرتقالي وغادرتني ، شعرت برغبتي تتمطى وأنا جالس أمام النافذة ، أسمع وقع الكعب العالي لخطوات امرأة عابرة . كم مضى عليَّ وأنا بدون سراب؟

أطفأت النور وتمددت على الكنبة وعالجت شهوتي بيدي وأنا أتخيل سارة ترقص بين يديَّ وتهتز كما بنات الغجر في ليلة بغدادية ساخنة ومقمرة . ولما قمت لأغتسل ، طارت النشوة وركبني الخزي . ونمت وأنا متعكر ، وصحوت وأنا أكثر تعكراً لأن غلاماً أوقع بي .

٣٢

جاء النبأ من السماوة حزيناً مثل نخيلها الذي أحرقت الحرب تيجانه، في البساتين، وتركت جذوعه كشواهد القبور.

تلقّى زمزم مكالمة من أبيه الحاج أبلغه فيها أنَّ أخاه الأوسط، جمال، قد استشهد في جبهة الفاو، ودعاه للعودة إلى البلد، بسرعة، لضرورة وجوده وسط الأسرة المفجوعة في ذلك الظرف العصيب، ولأنَّ «الوالدة تطلبك وقد انطفأت عيناها من البكاء وانهد صدرها من اللطم».

ومثلما كان بيت الخاتون يجمعنا في سهرات السرور، فقد فتحت صاحبته حضنها لأحزان زمزم، وعقدنا عندها مجلس العزاء بأخيه. لكنَّ حنقباز السماوة لم يعد حنقبازاً. صار كالأسد الحبيس، دمعه عصيٌ وغضبه كظيم، ينظر إلى الأفق من النافذة ويتخيَّل، مثلما نتخيَّل، أفواجاً تمشي إلى حتوفها، وأرامل ويتامى يقبضون ديَّة دم الشهيد الأمرّ من العلقم ويلعنون، في السرِ، من كان السبب.

وأطلَّ علينا طرَّاد الصافي، نهار العزاء، ومعه بضعة رجال من الحزب والاتحاد الوطني وممثِّل عن الطلبة العرب، جاؤوا يقومون بالواجب تجاه أخي الشهيد الذي هو «أكرم منَّا جميعاً» حسبما قال الرئيس. وكرروا العبارة وتمضمضوا بها كثيراً حتى خشيتُ أن يقوم زمزم ويشتمهم شرَّ شتيمة ويطردهم من المكان. لكنَّه كان مهدوداً من الحزن، لم يفتح فمه بكلمة سوى طلب توجَّه به إلى طرَّاد، قبل انصرافه ومن معه، بأن يجدِّد له جواز السفر المنتهية صلاحيته، لكي يذهب للاطمئنان على الأهل.

وردَّ القنصل: «أنت تأمر».

كانت تلك أولى الزيارات الكثيرة التي صار فيها زمزم رسولنا إلى وطننا وسفيرنا إلى أهالينا. نلقِّنه الرسائل الشفهية، وهي الأهمُّ، ونكتب إلى جانبها مكاتيب ورقية على سبيل التمويه، نختمها بعبارات التمجيد للقائد والدعوات له بالنصر في حربه ضد الفرس المجوس... محفوظات يعرف الأهل أنَّها ليست موجَّهة لهم بل للرقيب الذي يفتِّش الجيوب، ولو تسنَّى له لفتَّش القلوب.

ومع كل رحلة إلى بغداد والسماوة، كان صاحبي يعود وهو أكثر اقتناعاً بأنَّ باريس صارت موطننا الأرحم والمأوى الأكثر أماناً، وهي فوق هذا كلِّه «قلب العروبة النابض»، كما كان يطيب لصديقنا الباهي محمَّد أن يقول، وفيها يلتقي السوري بالمغربي ويتعرَّف اليمني على الجزائري، من وراء ظهور ضباط الحدود. أمَّا الخاتون، فكانت تكرِّر

علينا، بحكمة لا تُتاح إلاَّ لمن عاش وشاف:
- احفظوا العراق الذي تعرفون في بطون أعينكم، لأنَّكم ستكونون الشهود الأحياء وناقلي بذرة الخير بعد الخراب. أنتم الطائر الذي سيعود إلى الفُلك، بعد الطوفان، حاملاً غصن الزيتون.
على مَن تقرأين مزاميرك يا خاتون؟
إذ مع تمدُّد سنوات الحرب واستمرار طاحونة الشهداء، تملَّكنا اليقين بأنَّ الوطن يضمحلُّ ويتسرَّب من بينِ الأصابع كقبضة من دم، وأنَّ المسافة بيننا وبينه صارت برزخاً يتعسَّر عبوره. أمَّا بغداد التي في القلب، فكم كنت أخشى أن أراها تسكن مدارج الذكرى، مثل الصور الصفراء القديمة التي نحتفظ بها في البراويز الخشبيَّة الثقيلة، نطالعها في هجمات الحنين ونحن نبتسم بدَعَة، ونمسح عنها الغبار، ولا نملك إليها سبيلاً.
وكان يحدث أن ينتابني، أو يخامر زمزم، شيء من الإحباط المعطوف على تأنيب الضمير، ويتسلَّل علقم عكر إلى حلقينا لأننا نجلس على تلّ السلامة بينما تلوك الحرب أكباد إخوتنا وجيراننا ورفاق صبانا. إنَّ الشهداء المدافعين عن الوطن أفضل منّا بلا جدال، وما نحن سوى متهرِّبين من ضريبة الدم، مطعونين في وطنيتنا ورجولتنا، متعللين بأنها الحرب الخطأ في المكان الخطأ.
ذلك هو ما كنا، في تلك السنوات المبكِّرة من المأساة الكبرى، نشعر به. لكن الخاتون، تلك الأرمنيَّة الناجية من المذبحة التي ابتلعت كلَّ أهلها، كانت تعيد تصويب الميزان إذ تصيح فينا بصوتها الآمر

المرتجف:

- الرَّب خلقنا لكي نعيش ونتمتع في هذه الدنيا ونحافظ على نعمة الحياة. ولكل منا أجله... وحرام أن يحسد الأحياءُ الأمواتَ!

ولم تكن نقاشاتي مع زمزم، حول أوضاع البلد، تخلو من خلاف واشتباك. فقد أصررت، يوماً، على أنَّ جرثومة الخراب تكمن في البعث. ولم يحاول صاحبي أن يدافع عن حزبه السابق لكنَّه راح يكرر، بصوت مهيض:

- مبادئ البعث لا غبار عليها، فما أكثر البعثيين الناقمين، مثلي ومثلك، بل أكثر منِّي ومنك. لقد أهلكتهم الحرب والخفارات والوشايات وتدريبات الجيش الشعبيٍّ، ونخر النفاق العام والشامل كراماتهم، بينما انتقل الحزب ومبادئه وأفكاره إلى الرَّف. ألا ترى، يا صاحبي، كيف أكلنا الخراء جميعاً... بالتساوي؟

تضحك الخاتون كاشفة عن سنِّها الذهبيَّة، وتصفعنا بواحد من أمثالها الشعبيَّة المأثورة:

- الخراء أخو البول. شيوعيون أو بعثيون أو قوميون أو أصحاب لِحى... كلُّكم داس بالأرجل في بطن العراق الذي كان جنَّة الله على الأرض...

من يعترض على حكمة الخاتون، ومن يتجرأ على نقضها؟

تنقلب ضحكتها العريضة إلى تكشيرة اشمئزاز وهي تروي لنا شيئاً مما رأته بعينيها، في الموصل، بعد ثورة قاسم، ثمَّ بعد انقلاب الشوَّاف:

- هتَفنا جميعاً وراء الهاتفين «هلا بيها الجمهورية...». وكانوا يصوبّون البنادق إلى صدر الملك والأميرات ويسحلون الوصيّ على العرش في بغداد ويتناهبون جثّته. ثم رأيت الجموع تتراكض نحو حي المحطَّة. ما الخبر؟ قالوا إنّ إبهام عبد الإله وصلت إلى الموصل. وبعد يومين أو ثلاثة رأيتهم يركضون في اتجاه السرجخانة. ما الخبر؟ لقد وصلت خصية نوري باشا.. جاءتنا النُتَف والجيَف، وكانت كافية لأن تكنس ما بقي في الرؤوس من عقل. ورأيت، بعدها بأشهر، أجساداً تُعلَّق عارية على أعمدة الكهرباء وأثداء تُقطع وتُرمى للكلاب. صارت المدينة بيتاً مسكوناً بالأشباح وفاحت في أزقّتها روائح عزرائيل. اسمعوا منّي... ملعون... ألف ملعون أبو السياسة التي تجعل الأخ وحشاً ينهش لحم أخيه.

قالت ما قالت، بصوت مرتجف من الانفعال، وأطبقت شفتيها إطباقة من يعضُّ على النواجذ لئلا يصرخ من الوجع. وسكتنا مثل لحود ثلاثة، كأنّنا نخاف أن نُقلق الأشلاء المدفونة فينا. وكانت الخاتون أول من تزحزح من قبره بيننا، إذ قامت تجرجر ساقيها الثقيلتين إلى المطبخ وعادت وهي تحمل خمرنا، كفاف يومنا وبلسم أرواحنا، وسحبت الفلّينة عن القنينة بحركة طوّعها المران، وقالت بلغة لا نفقهها:

- كي نون بيفي كون مي... بستا لو تولغا...!

سألها زمزم بدهشة ساذجة:

- أتتحدثين بالأرمنيَّة؟
- لا عيني لا، هذي جملة عظيمة يقولها الممثل أميديو نزاري في فيلم إيطالي من أفلام أيام شبابي.
- وماذا تعني؟
- تعني: من لا يشرب معي... ليأخذه الطاعون!

وشربنا معها، لا خشية طاعون لم يعد له حول ولا قوَّة، بل سقياً لأزهار الأسى التي تفتَّحت، للتوٍّ، على شرفات جلستنا. وكانت الوحشة تلك الليلة، رغم أكتافنا المتساندة وكؤوسنا المتقارعة، في أعلى ذراها.

عدنا إلى صمت القبور، وكأنَّنا نحن الثلاثة من قتل الوطن، ونحن من مثَّل بجثته ومن لفَّق جنازته. وتهدَّل رأس الخاتون على صدرها وأغفت، وهي جالسة، وعلا شخيرها. ولفَّ زمزم كتفيه بذراعيه ورفع قدميه إلى حافة المقعد، مثل جنين متضخِّم، واستغرق في ذلك الوضع غير المريح وكأنه يريد تعذيب نفسه على سوء المنادمة وتعكير صحبة الكأس. أمَّا أنا فقد ندمت على فتح الموضوع والإلحاح في الجدل الذي لا طائل من ورائه.
أشفقتُ عليه، ذاك الجنوبي اللمَّاح الذي جاء إلى هنا سعياً وراء شهادة مرموقة لم ينلها أحد من أبناء عشيرته من قبل. وهاهو مكسور، سكِّير، مشتت البال، يرزح على كاهل صديقته الفرنسيَّة التي ترى فيه

عبقرياً سيجد دربه إلى القمة ذات يو م . كيف كان سيتدبًّر المئات من الشباب اللاجئين إلى هذه البلاد، أمورهم، خارج أحضان هؤلاء السوزانات الطيِّبات؟

٢٣

تمرُّ عليَّ، أحياناً، أسابيع وأشهر بلا حركة، ثمَّ يطلع يوم ينفض غبار البلادة نفضة صاعقة وتتجمَّع الأحداث فيه، دون غيره، وكأنَّ لوجوده على صفحة الروزنامة جاذبيَّة خفيَّة.

ظننت أنَّني قطعت رِجل طرَّاد الصافي من طريقي، لكنَّه عاد واتَّصل بي، ذات صباح، وطلب أن نلتقي في المساء نفسه. وأردت أن أزحلقَه وأتحجَّج بموعد سابق، غير أنَّ نبرة صوته أنبأتني بخطر مبين حين قال:

- ألغ كل المواعيد وتعال... يجب أن تأتي.

ضرب لي موعداً في بار فندق «بي. إل. إم» الواقع في بولفار «سان جاك»، غير بعيد عن بيتي، ثمَّ هاتفني ثانية، عند العصر، وطلب أن يكون اللقاء في صالة السينما الصغيرة الملاصقة للفندق. وأعطاني تعليمات جيمسبونديَّة مثيرة:

- إذهب في السابعة والربع و اقطع تذكرة لفيلم «جوني يذهب إلى الحرب» وادخل إلى القاعة مع أول الداخلين، واجلس في الكرسي ما قبل الأخير، من يسار الصفِّ الأخير، وضع معطفك على الكرسي المجاور لك، وعندما يُطفأ النور ستراني جالساً بجوارك فنتحدَّث بهدوء... بعيداً عن الأعين.

- في السينما؟

- إسمع ما أقوله لك ولا تعقِّد المسألة. أنا أفهم منك في هذه الأمور.

لم يكن في الصالة، حين دخلتها، سوى أربعة أشخاص. فقد كان الفيلم من النوع الذي يتوجَّه إلى جمهور خاص وليس من أفلام المغامرات التي تستهوي السياح اليابانيين الذين ينزلون في الفندق المجاور. وتصرفتُ مثل مخبر سريٍّ وأدرت بَصَري في الأرجاء وتفحصت، بنصف عين، وجوه الموجودين، قبل أن أتوجَّه إلى المقعد الذي حدَّده لي ابن الصافي. وحال إطفاء النور وابتداء المناظر امتدت يد لترفع معطفي وليجلس صاحبها في المقعد الملاصق لي.

عرفته من رائحته، إذ لم تكن عيناي قد ألِفتا الظلمة بعد. رائحة عرق مغسول بكولونيا، مثل الموظفين الذين يلتصقون بكرسي المكتب، ليل نهار، في انتظار هاتف خطير، ولا وقت لديهم للمرور على بيوتهم وأخذ حمام قبل جولة المساء.

ظلَّ ساكتاً لعدَّة دقائق، ثم مال نحوي وهمس بعبارة واحدة، أردفها بكلمة:

- فَهِمتَني؟

وقام وخرج من الصالة.

الغريب الذي لم أفهمه، إلى الآن، هو أنَّ الفيلم استهواني وشدَّني إلى متابعته حتى النهاية رغم أنَّ ما قاله لي طرَّاد كان كفيلاً بتشتيت ذهني لأسبوع كامل. لقد تعاطفت مع مأساة جوني، ذلك الجندي الفتى البريء الذي أطاح انفجار بأطرافه الأربعة وتركه مِسخاً بلا وجه ولا لسان، يسمع ويفهم كل ما يدور حوله دون أن يَتمكَّن من الرد أو الحركة. كان كائناً حيّاً لكنَّه لا يملك أدوات الكائن الحيٍّ. و قد خاف منه كبار الجنرالات ووجدوا فيه دعاية سيِّئة للحرب، كفيلة بأن تصدَّ الشباب عن الانخراط في الجنديَّة، فقرروا أن يعزلوه في سرداب المستشفى، كي لا تقع عليه عين، واعتبروه من أسرار الدولة!

كم جوني، من أمثاله، تقطَّعت أوصاله في جبهات المحمَّرة والفاو وديزفول و كيلان غرب والكارون وجبال الشمال؟

هزَّني تعلُّقه بالحياة من خلال إحساسه بالممرضة التي كانت مكلَّفة به، وحكاية الحب التي نشأت بين الإثنين، في سرداب المستشفى بعيداً عن أعين جنرالات الموت، ونسيت ما جاء ابن الصافي يهمس لي به تحت جنح الظلام، مثل خفافيش المغارات المهجورة. أي هراء ذاك الذي دسه تحت إبطي؟

ليت يومي المشهود انتهى عند نهاية الفيلم. فقد وصلتُ شقّتي لأسمع الهاتف يرنُّ و أنا أرتقي الدرج. وأدرت المفتاح بسرعة لكنّي لم ألحق به. وارتميت على الكنبة، دون أن أخلع معطفي، وراحت صورتا جوني وطرّاد تتعاقبان عليَّ، وكأنَّ الفيلم ما زال يدور في رأسي.

لا أدري كم بقيت على تلك الحال، إلى أن فَزّزَني رنين الهاتف من جديد، فهرعت إليه و أنا أتوقّع أن أسمع صوت طرّاد... وإذا بها نجوى.

- آسفة للإزعاج في هذي الساعة، لكنَّ الخط لا يفلح إلاّ في الليل... أرجو ألاّ أكون قد أيقظتك من النوم؟

أدهشني وضوح صوتها وهجست به قريباً منّي، كأنّه يطلع من بين ضلوعي، وسررت به إذ جاء لينتشلني من اللجّة التي رماني فيها ابن الصافي، وليدثّرني بدفء... آه كم أنا في توق إليه.

ليتك توقظينني، يا نجوى، من الآن حتى آخر عمري، وتسرقين نومي غير مأسوف عليه. هل تصدّقين أنَّ صوتك ما زال يفعل بي العجائب بعد كل هذه السنين؟

وددت لو أقول لها كلَّ ذلك، لكنّي أحجمتُ. أما هي فقد سألتني عن سارة التي ما زالت تسمّيها ساري، وأوصتني، مرّة جديدة، أن أعتني به وآخذه على قدر عقله، قائلة إنّها تعرف أنّي لا أحتاج إلى وصيّة. ولم تسوِّلْ لي نفسي أن أردَّ بالقول إنَّ سارة بين يدين أمينتين، لأنّني

خبرت تلك النفس الأمَّارة بالسوء، واكتفيت بأن غمغمت أنَّ ساري في بطن عيني.

هل استشعرت نجوى أثر هاتفها عليَّ فأطالت الحديث وراحت تسألني عن أحوالي في وحدتي وعن معاناتي مع الغربة؟ وماذا قصدت من تلك الأسئلة؟
لم أكن غبياً إلى حدِّ المضيِّ في رسم تصورات سعيدة قد لا يكون لها من أثر إلا في أوهامي، لذلك كنت أجيبها بعبارات جاهزة وتقليديَّة ومحايدة، من نوع «الحمد لله» و«ماشي الحال» و«الله كريم»، بينما كانت دواخلي تتغنَّى بها وتهتف لها وترقص على إيقاعات صوتها المفعم بحنان عجيب. أين كان حنانك، يا حبيبة أوَّل العمر، يوم أدرتِ لي ظهرك ومضيتِ إلى الحياة المرفَّهة؟
وسرعان ما لمت نفسي إذ جنحت نحو العتاب السخيف الذي ولَّى زمنه وانقلبت صفحته. عتاب أبكم لم أنطق به، عن لياقة لا عن عزَّة نفس، ولمَّا استجمعتُ شتات صوتي قلت لنجوى إنَّني مشتاق لبغداد... وأهل بغداد... فغطسَ صوتها برهة كانت كافية لإيقاد الجمرات الكوامن في جسدي، ثم عاد رائقاً، يتدلَّل في نبراته، وهي تتمنى لي أن أصبح على خير.

سأصبح على خير وكاهي و قيمر، بعد أن أنام رَغَداً وأحلم بكهرمانة وجنيَّات ألف ليلة. أمَّا الآن فاغرب بوجهك يا ابن الصافي عنِّي

وخذ معك تلك القذارة التي تقيأتَ بها، قرب أذني، ونحن في عتمة السينما.

إنَّ الفجر ما زال بعيداً، وهناك نصف قنينة نبيذ في الخزانة تنتظرني مادَّة فوهتها إلى عَطَشي، وهي كفيلة بأن تمحوَ سحنتك المنكمشة دائماً، يا طرَّاد، مثل مَن يعاني من إمساك مزمن... تمحوها حتى الصباح.

٣٤

سَقَطَ النَّصيفُ ولم تُرد إسقاطَه
فَتَداركَته واتَّقَتنا باليَدِ

سقط جدار برلين، وأنا قاعد في باريس، منكبٌ على قواميسي في «بولفار بلانكي»، أنتظر أن تسقط جدران أخرى وأترجم مقالات ونصوصاً عن المخاض الأوروبي الكبير وأبعث بها إلى مجلات لا في العير ولا في النفير، لكنَّ ما يأتيني منها يحفظ لي ماء وجهي.

وتواترت الأحداث بأسرع من قدرتي على ترجمتها، وانهار الاتحاد السوفياتي بقضّه وقضيضه، ذاك الذي كان، في مرحلة أساسيَّة من فتوَّتي، صنماً جميلاً ومثالاً يُحتذى في الوطن الحرِّ والشعب السعيد.

تهاوى كما نمر من ورق، وتركني، والملايين من أمثالي في الشرق والغرب، أشباه يتامى... يتامى فُطِموا على كِبَر بعد أن تلقَّوا على

الرؤوس ضربات أعادت إليهم الرشد الهارب. وكان بين الرفاق من يحاول أن يتدارك الصدمة بالنقاش والتحليل والتفلسف العقيم. أمَّا أنا فقد أصابتني الأحداث بالخرس المعنوي، رغم زعمي أنَّني كنتُ أرى الطوفان وهو آتٍ، وأصبحتُ مثل فتى مُصاب بمرض التوحُّد، أتقوقعُ على نفسي وألوذ بهواجسي وأرى الآخرين يتحركون ويتحادثون وكأنَّهم يتحركون وراء زجاج عازل ويتحدثون فلا تصلني أصواتهم.

لن يغيب عن بالي كيف تسمَّرتُ واقفاً، في يوم صقيعيٍّ من أيام كانون، أمام إعلان مضيء للجوارب على لوحة في «السان ميشيل» يدعو الناس إلى الكشف عن جواربهم والتباهي بها لأنَّها لم تعد، كما السابق، شيئاً متواضعاً أو مثقوباً تقضي اللياقة بإخفائه داخل الحذاء وتحت ذيل السروال.

صدمتني الصورة التي اختارها المعلنون للتأثير في المارةِ، وكانت صورة جنرال سوفياتي منتفخ الأوداج، يلبس بزَّة شتويَّة خاكيَّة وقبعة عسكريَّة عريضة، ويضع على صدره بفخر واعتزاز عدَّة صفوف من النياشين... نياشين تتدلّى منها جوارب صغيرة ملوَّنة بدل أنواط الشجاعة وميداليات الشرف.
ذبحتني الفكرة الجهنَّمية لذلك الإعلان، وكدت أصرخ من القهر في وجه الخاتون عندما عادت من سوق الأنتيكا، بعد يومين، وهي تحمل

لي قبَّعة عسكريَّة من مخلَّفات الجيش الأحمر. دقَّت بابي على عَجَل وسلَّمتني إيَّاها وواصلت صعودها اللاهث نحو شقَّتها، قبل أن تشهد مقتلي.

علَّقت القبَّعة على الجدار المقابل لطاولة الكتابة ورحت أمضي الوقت في تأمُّلها فأتأخَّر عن الترجمات المطلوبة منِّي. وفي النهاية رفعتها ورميت بها في موضع لا تقع عيني عليه... فوق خزانة الثياب.

يجيء زمزم ويلقي بين يديَّ بسلَّة شتائمه المعتادة فلا ألتفت إليه كثيراً. ويتعب من الكلام أو من تجاهلي له فيدعو عليَّ بطَيَحان الحظ ويذهب صافقاً الباب خلفه لأنِّي لم أعد أدخل معه في لعبة تحليلاته ولا أجاريه في اللطميَّة التي يتوق إليها. ماذا تريد منِّي يا صاحبي؟ أن أقيم مجلساً للعزاء على روح الاتِّحاد المرحوم وأن أدور على الجيران بفناجين القهوة المُرَّة؟
وكانت حرب إيران قد انتهت بعد أن شبعت من عبٍّ الدماء على جانبي الحدود، وزالت عن رأس زمزم هالة «أخي الشهيد» مع عودة الآلاف ممن يتوكأون على عاهاتهم ويبحثون عن موطئ قدم، أو عكَّاز، في مدن لاهية، مُستلَبة، محكومة بالخوف، لا مزاج لديها للاستماع إلى كوابيسهم ولا دمعة فائضة تذرفها على همومهم.
عاد جرذان السفارة إلى التحرُّش بزمزم، لكنَّه كان قد سدَّد الكفالة المطلوبة منه ودفع نقداً بدل الذهاب إلى الجنديَّة، تلك المحرقة

التي يسمّونها، زوراً، خدمة العَلَم. لقد اشترى صكّ بقائه في باريس بفلوس والده الحاج، وهي فلوس ساعدته، أيضاً، على تجربة مواهبه في البزنس ومحاولة تصدير أي شيء إلى البلد الغارق في أوحال ما بعد الحرب.

حتى سارة، تلكأت كثيراً في العودة إلى العراق، ونفد المبلغ المخصّص لعلاجها، وعندما كنت أسألها عن مشاريعها للمستقبل فإنّها كانت تكتفي بالصمت، أو بنظرة أفهم منها أنّها تعيد الكُرة إلى ملعبي. لماذا يتعيّن عليها أن تفكّر، وحدها، بمستقبلها ولا أفكّر أنا بمستقبلي؟

أسألها ونحن نتمشّى في الحيّ الصينيّ، نجمع النعناع والزنجبيل والفواكه التي طلبتها الخاتون:

- ألا تحنّين إلى علاوي بغداد الجديدة وسوق المخضّر في الشوّاكة؟

- أي شوّاكة؟ لقد أزالوها وأقاموا في أماكنها عمارات للمسؤولين...

- ووالدتك وشقيقاتك... ألا تشتاقين إليهن؟

- طبعاً أشتاق، لكنّ حريّتي هنا. أمّا في بغداد فلا ينتظرني سوى العار.

وكنت أفهمها وأعطف عليها، ولا أدري كيف كانت تتدبّر تمديد إقامتها. وأخبرتني، ذات يوم، أنّها وجدت عملاً في صالون للكوافير،

وهناك تعرَّفت على زوجة دبلوماسيٍّ خليجيٍّ، وبفضل تلك المعرفة حصلت على وظيفة سكرتيرة في سفارة قطر. لكنَّ وشاة من سفارتنا بثوا خبر تحوُّلها من ذكر إلى أنثى ففقدت عملها الجديد، ولعلَّهم تصوَّروا أنَّها كانت تتنكَّر في زي امرأة لكي تتجسَّس عليهم!

أنا خير من يعرف أنَّها لم تكن جاسوسة، لأنَّ لا كنز كان يعادل، في نظرها، ذلك العضو الملموم الصغير الذي ابتدعه الجرَّاح الماهر الذي رسمها امرأة... ورمَّم إنسانيَّتها المثلومة.

أنا خير من يعرف. فقد حاولتُ استدراجها إلى الاعتراف بالصفقة التي تمَّت بينها وبين ذئاب السفارة، لكنَّها رفضت اللفَّ والدوران وقابلتني صدراً لصدر وعينها في عيني:

- هل تظنُّ أنَّهم أرسلوني للتجسس عليك؟

- لا، أنا لم أعد أساوي شيئاً في نظرهم، لكنِّي أعرف أنَّهم طلبوا منك تقارير عن زمزم.

- لم يطلبوا تقارير... بل أعطوني جهازاً بحجم علبة الكبريت وعلَّموني كيف أسجِّل له أحاديثه... هنا في بيتك.

يا بنت الكلب!

أدهشني اعترافها السريع، اعترافها المرعب الصفيق. واتَّجهت نظرتي، بحركة لا إرادية مني، إلى حقيبة يدها. لكنها ضحكت ضحكة عصبيَّة وعاتبتني بالقول:

- لا تخف. لستُ بنت حرام. وقد أموت ولا أطعنك في الظهر، أنت بالذات، ولا أؤذي زم.. زم..

واختنق صوتها، فجأة، وغلبها نشيج جعلها تهتز بقوةٍ، تنفيساً عن احتصار شديد لابد أنَّها كانت تكابده ولا تعرف كيف تتخلَّص منه. وملأني بكاؤها غيظاً على أولئك الذين استغلوا وضعها وأرادوا العبث بهشاشتها... الجرذان التي تختبئ وراء الحقائب الدبلوماسيَّة والمناصب المحصَّنة.

همت بأن أقوم إليها وأحتويها في حضني، لولا خجلي من أن تكون حركتي الطبيعيَّة استغلالاً من نوع آخر، فتركتها تبكي حتى استراحت. ثم رفعت وجهها المحتقن الفاتن نحوي وسألتني:

- كيف عرفت...؟

- طرَّاد الصافي أخبرني. جاءني مدفوعاً بالصداقة القديمة بيننا، وحذَّرني وطلب منِّي أن أحذِّر زمزم أيضاً... منك!

- وهل دار في بالك أنّني يمكن أن أخون الخبز والملح... والنبيذ؟

- خصوصاً النبيذ... ولهذا لم أهتمّ لكلامه.

قامت سارة وجاءت إلي وقبَّلتني على رأسي، مثل ابنة بارَّة تلثم رأس أبيها، ومضت لتغسل وجهها الذي ساح عليه الكحل. ولمَّا عادت وقفت مقابل النافذة، وظهرها لي، وسمعتها تقول بصوت خافت:

- لن أسمح لأحد، كائناً من كان، بأن يلوِّث شَرَفي بعد الآن...
شَرَفي الذي قايضتُه بالرجولة.

بهرتني عبارتها، ورحت أتأمل نظرتها المغايرة للشرف، إذ يكون صدقاً وجمالاً وأمانة وحباً للعيش، لا سفاسف عفا عليها الزمان. وشعرتُ، لأول مرَّة منذ عرفتها، بأنَّها لم تعد هشَّة وضعيفة، وبأنَّني في مكان ما من نفسي... سعيد بها. وفكَّرت أنَّ عليَّ أن أكتب رسالة بهذا المعنى إلى نجوى، لكي لا تندب ضياع ساري، ولكي تفرح بالعثور على سارة.
تصوّرتها أغفت وهي في اتكائها على النافذة، لكنَّها استدارت نحوي وبدأت تحكي لي كيف كانت تتهرَّب من هواتف جرذان السفارة وتماطل في الذهاب إلى المواعيد التي يحددونها لها. كانوا يريدون تشغيلها لحسابهم، ولم تكن القطَّة الجميلة القابلة للتدجين. ولمَّا حاصروها وهددوها بتخديرها وشحنها إلى بغداد، لم ترضخ لهم بل هددتهم، بدورها، بأن تتصل بالرئيس وتشكوهم إليه.
قالت وهي تستعيد بهجتها:
- لقد كفُّوا عن إزعاجي، ويبدو أنَّهم أخذوا قضيَّة الاتصال بصدَّام مأخذ الجدّ... لا تنسَ أنني صاحبة سوابق في هذا الميدان.
- وماذا فعلت بالمسجِّل الذي أعطوه لك؟
غمزت بعينها ضاحكة، غمزة عفريتة، وردَّت:
- ألقيته في أول بالوعة صادفتني في الطريق وبصقت فوقه.


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!

٣٥

خبطت الخاتون بقدمها خبطاً متواصلاً على أرضيَّة شقَّتها، ذلك الصباح، فأيقظتني من نومة صيفيَّة هانئة وأقلقت خاطري. ماذا دهاها في هذه الساعة المبكِّرة؟

صعدت إليها وأنا أتوقَّع أن تكون مريضة وتحتاج أن أنقلها إلى الطبيب، وفتحت لي الباب وهي بكامل لياقتها ولا أثر للإعياء عليها، لكنَّها كانت مستثارة ويدها تشير إلى الراديو الذي يلعلع في غرفة نومها.

- خير يا خاتون... سمعت خبطات قدميك فظننت الدنيا انقلبت...

- انقلبت بس؟

- ماذا حدث؟

- العراق دخل الكويت.

تذكّرت صباحاً بعيداً من صيف يشبه في سخونته هذا الصيف، أيقظتني فيه أمّي وأنا نائم فوق سطح بيتنا الأول في الكرّادة، وقالت لي، وهي تشبك يديها فوق رأسها، إنَّ ثورة قد قامت في الإذاعة وإنَّ «المَلَكيَّة راحت وصارت جمهوريَّة». وسمعنا البيان الأول ونحن لا نفهم ما يدور، ثم توالت الثورات والبيانات الأولى حتى حفظنا ديباجاتها و نشيد «الله أكبرفوق كيد المعتدي».

ومع كلٍ انقلاب في الحكم، تفوح رائحة الحريق في الحدائق الخلفية لبيوت بغداد وتنتشر صاعدة إلى السطوح المأهولة في الأصياف الساخنة. فقد كان الناس الخائفون من بطش الحكّام الجدد يشعلون النار في براميل الزبالة بعد أن يلقوا فيها بصور ومنشورات العهد السابق.

شتّان ما بين تمّوز البشارة وآب الأقشر!

بدأت طبول حرب جديدة تُقرع فوق رؤوس العراقيين وهم لم يمسحوا، بعد، وعثاء حرب مضت. لكنّها السياسة الرعناء التي تهزأ بالمصائر طالما أنَّ أولاد الخايبة هم من يدفع الثمن.

إكتشفنا «السي. إن. إن» وعاقرناها ليل نهار. وازداد استهلاكنا من النبيذ، ودخلت على الخط مشروبات أقوى. ولم نعد نهنأ بلقمة أو ضحكة أو نومة أو وجه حَسَن. وسرت ريح سموم في صفوف عراقيي باريس، واسودَّت وجوه واختفت وجوه وظهرت أخرى. ودخلت الخاتون في وجوم يشابه ذاك الذي أصابني بعد تفكُّك

قبضة موسكو. ونسيت سارة أنوثتها وأهملت زينتها وظهرت جذور سوداء عند مفرق شعرها الأصهب. ورَكِبَت حنقباز السماوة حماسة جعلته لا يستقرُّ على رأي. هو مع الحرب وضد الحرب، مع الأمريكان وضد الكويتيين، مع العراق وضد صدَّام. ولم تكن حالتي بأفضل منه، غير أنَّ بوصلتي لم تتذبذب كثيراً ولم تَخُنِّي في لحظات الشك.

وبدأنا نسمع أخباراً عن طلبة عراقيين يُفصلون من الجامعات الفرنسيَّة، وإشاعات عن معسكرات تُعَدُّ لعزل أبناء جاليتنا، على غرار تلك التي أقامها الأميركان لليابانيين أثناء الحرب العالميَّة، ونقرأ عن سفراء يهربون من سفاراتهم، وعن قادة عسكريين يلجأون إلى الشمال، وعن صحافيين يقفزون من ضفَّة إلى أخرى، وعن أموال كثيرة تُدفع هنا وهناك لشراء مواقف وذمم، بل دول بالكامل، من الرئيس حتى بوَّاب الوزارة.

أسمع كلَّ ذلك فلا يعني لي شيئاً ذا بال. إنَّ المحنة الحقيقيَّة هي هناك، حيث ستسقط القنابل على شعب أعزل وعلى جنود منهكين لم يشبعوا من أحضان نسائهم ولا من خدود أطفالهم. أليس في الكون قوَّاد أو ابن قحبة شبعان من حليب أمِّه يأبه بهؤلاء أو يحسب حسابهم؟

وفي عزِّ المعمعة ذهبت سارة إلى السفارة لكي تمدِّد جواز سفرها، وعادت وهي مهمومة ومتعكِّرة المزاج، ولم أسألها عمّا بها لأنني اعتبرت اكتئابها نتيجة طبيعيَّة للذهاب إلى هناك.

قالت لي إنَّ طرَّاد الصافي قد اختفى بعد أن جاءت الأوامر إلى أركان السفارة بالعودة إلى بغداد. ويقال إنَّه طلب اللجوء في بلد من بلدان المغرب العربي، مثله مثل آخرين قفزوا من السفينة الآيلة للغرق.

ثمَّ طرق بابي، ذات صباح باكر، رجل قصير القامة، أشقر الشعر، يرتدي سترة صفراء خفيفة، دعا نفسه إلى بيتي لكي «يشرب معي فنجان قهوة» على حدِّ قوله. ولم أكن في حاجة إلى أن أشمَّ ظاهر كفِّي لكي أعرف أنَّه من رجال الأمن. وأجبت عن أسئلته وأنا لا أفهم ما الذي جاء به إليَّ. ثمَّ تكشَّف كلُّ شيء عندما استفسر، بالاسم الصريح، عن طرَّاد، وعن علاقتي به.

وإذاً فقد تمكَّن ابن الصافي من تضليل جماعته في السفارة، وهو يأتي إليَّ لتحذيري منهم، لكنَّه لم يفطن إلى أنَّ الفرنسيِّين كانوا يراقبونه، مثلما يراقبون كلَّ الدبلوماسيِّين الذين في مثل منصبه.

أجبته بما أعرف عن طرَّاد. لا أكثر ولا أقل. ووجدتني أقول بأنَّه لم يكن إنساناً سيئاً، والدليل هو مساعدته لي، رغم انَّه كان دبلوماسياً مزيَّفاً.

وعلَّق زائري ببرود:

- كل الدبلوماسيِّين على هذه الشاكلة... وإلاّ كانوا فاشلين.

٣٦

نزل قرار الخاتون علينا نزول مزحة في غير أوانها. لقد حسمت أمرها و قررت الاشتراك في رحلة سياحيَّة إلى أرمينيا تنظِّمها الكنيسة لزيارة بلد الأجداد. و كانت أرمينيا قد خرجت، للتوِّ، من القبضة المرتخية للجدار الحديديِّ، و صارت جمهوريَّة مستقلَّة.

في المطار سمعتها، لأول مرَّة، تتحدَّث الأرمنيَّة مع رفاق الرحلة. و لا أدري لماذا أحسست بأنَّ لسانها يرقص على هواه في هذه اللغة برشاقة طبيعية لا تتوفَّر له بالعربيَّة أو الفرنسيَّة.

و لمَّا سمعت رفاق رحلتها يخاطبونها بلقب «السيِّدة الكونتيسة» وينحنون أمامها و يقدمون آيات الاحترام، لم أستطع مداراة ابتسامتي إذ تذكَّرتُ محبوبتي الرائعة صوفيا لورين في فيلم تشارلي تشابلن «كونتيسة من هونغ كونغ»... ونفشتُ ريشي نصف نفشة، كديك خائب، لأنَّ زَمَني قادني إلى رفقة كونتيسة فرنسية من مواليد بلاد الرافدين، لا تكتفي بما حبتها به الأقدار، بل تسعى وراء جذور ضائعة في أرمينيا. أليس هذا هو

ما يسمّيه زمزم «طركاعة»؟

رجعتُ إلى البيت وحيداً، حزيناً، كارهاً سقفي الساكن الذي لا يئزُّ تحت وقع قدميها الثقيلتين. وأخذتُ أفكّر في تلك العجوز التي صارت جزءاً من غربتي، حَنَت عليَّ كما لم تحنُ أمّ ولا حبيبة، وعجبت للمصادفات التي تجمع الأوادم وتؤلّف ما بين القلوب، قافزة فوق أخاديد الفوارق الكثيرة في الأعمار والعقائد والطباع والتجارب والأصول.

شربت عَرَقاً، تلك الليلة، منفرداً بدون نديم، ولم تُعجبني وحدتي فاستدعيتُ أرواح حبّاباتي ورجوتهنَّ أن يسامرنني، فلم يخيِّبنَ لي رجاء.

رأيت عمّتي تأخذ بيد أمي نازلتين من ساحة كهرمانة، في مفرق الكرّادة، وصولاً إلى «بولفار بلانكي». ثمَّ عبرتا من تحت جسر المترو، وسارتا في اتجاه عمارتي وصعدتا إلى شقّتي وتربّعتا على الأرض، عند مائدة شرابي. وبعدهما جاءت سراب في ثوب فستقيٍّ فضفاض، خارجة من غياهب عالمها النائي، وجلست في حضني. وحضرت نجوى ملفوفة في شاش أبيض، مُدمّاة بجروح الغارات الحربيّة، واستلقت لترتاح على الكنبة التي تحبها سارة، قرب الشباك، ومدّت يدها وتناولت حبّة لبلبي من مزّتي ثم نامت.

سكرتُ، تلك الليلة العجيبة، بالعرق الزحلاويّ وبدمع لم أعرف ما هو أمرُّ منه. فأيُّ طنطل غبيٍّ، قليل الحياء، قال إنَّ الرجال لا يبكون؟

٣٧

لم تطل غيبة الخاتون عنَّا أكثر من أربعة أيام. لقد قطعت رحلتها وعادت لتقول لي بنبرة حاسمة:

- هات سكيناً واقطع لساني إذا أنا تفوَّهتُ باسم أرمينيا مرَّة أخرى!

التقينا عندها كالعادة، غداة إيابها، وكان ذاك لقاءنا الأخير نحن الأربعة. واستمعنا إليها وهي تصف لنا خيبة أملها في ما شاهدته في بلاد الأجداد من فقر مدقع وتأخُّر لا يتناسب ومهارات الأرمن في كل زمان ومكان. قالت:

- عشتُ عمري كلَّه و أنا أغنِّي نشيد «يريفان» الذي يتعلمه أبناء شعبي المهاجر ويتناقلونه جيلاً بعد جيل. وكنت أحلم بأن ألقيَ نظرة على تلك المدينة قبل أن أموت. لكنَّ رائحة البول كانت تزكم الأنوف منذ وضعنا أقدامنا في مطار يريفان، ولم تكن بقيَّة الرحلة بأفضل من ذلك...

تقاطعها سارة:

- لكن البلاد تبقى عزيزة على قلوب أبنائها مهما تدهورت أحوالها...

- ليت البلاد تبقى نشيداً وأحلاماً فحسب.

ليت بغداد ظلَّت نشيداً يا زمزم. وليت شمل الأحباب يلتصق بمادة أقوى من المصادفات والأقدار والنوايا الطيبة، فلا يتفرَّقون.

كان ذلك آخر لقاء لنا.

وبعد أربعة أيام وُجدت جثَّة سارة ملقاة في الطرف الشمالي لغابة بولونيا، حيث تصطاد عاهرات باريس زبائنهنَّ، وكانت مخنوقة بوشاحها الذي أهدتها إيَّاه الخاتون في لقائنا الأخير. الوشاح الحشيشي اللون المطرَّز باليد في أرمينيا.

عاد الرجل ذو السترة الصفراء إلى بيتي، ومعه رجال آخرون، وأخذوني للتحقيق في قسم الشرطة، ثم أخليَ سبيلي بعد ساعات. وجرى استجواب الخاتون، أيضاً، وزمزم، والطبيب النفسيِّ، وحارسة العمارة التي أقامت فيها سارة بعد خروجها من المستشفى. وكان المحققون متأكدين من أنَّ الضحيَّة قد خُنقت في مكان آخر، ونقلت الجثَّة إلى الغابة للإيحاء بأنَّ الجريمة ذات دوافع جنسية. الضحيَّة. هكذا كانوا يُسمونها. القتيلة. المغدورة. الأجنبيَّة. المتنكِّرة. ولم تعجبني ترجمة «المنهل» للمفردة الأخيرة فاجتهدتُ وترجمتها: المتحوِّلة.

هل أقول لهم إنَّ كلَّ تلك التسميات لم تكن تعبِّر عن سارة ولا تمسُّ جوهرها؟ سارة الآتية من السرور، الذاهبة إلى مأدبة الحياة، الإنسانة التي كسبت جنسها بعنادها، والبنت التي وضعتها أمُّها أمانة بين يديَّ وأوصتني أن آخذها على قدر عقلها، فأكلت بعقلي حلاوة... وأنا الممنون.

لم تسفر التحقيقات عن شيء. «خَبَنوها»، كما نقول بلهجتنا، ولم نفهم السرَّ ولم نعرف الجاني. وشعرنا أنَّ الشرطة تريد أن تزيح عن كاهلها تلك الورطة الزائدة التي لا مكان لها بين بلدين لا يزالان في حالة حرب وبينهما قضايا معلَّقة عديدة. واتّصل بي ذو السترة الخفيفة، بعد أيام، وأبلغني أنَّ تصريحاً بالدفن قد صدر ويمكنني تسلُّم الجثمان من المشرحة، إذا أردتُ، أو تركه لموظفي البلديَّة يدفنونه في زاوية المسلمين بإحدى مقابر الضواحي.

ولأن الخطوط مع بغداد كانت مقطوعة، والتمرُّد على السلطة يسري سريان النار في الهشيم، ولا أحد يعرف أين رأس الشليلة، لم أجد أمامي سوى اللجوء إلى وزارة الخارجيَّة الفرنسية لإبلاغ أهل سارة بالخبر. ولا أدري كيف جرى ذلك، لكنَّ صرخة نجوى وصلتني وسمعتها من وراء المسافات، واتَّحدت لوعتها بلوعتي وكأنَّنا ثكلنا الفلذة معاً.

هي أمانة ولابد أن أعيدها إلى صاحبتها. هذا ما قلته للخاتون وأنا أتهيأ، على عجل، لمصاحبة الجثمان إلى بغداد. ولم أكن واثقاً من

دافعي إلى السفر. هل أريد، حقاً، نقل سارة لتدفن في الأرض التي سَقَتها بماء دجلتها ثم قَسَت عليها، أم التعلُّل بموتها حجَّة للعودة إلى الأرض التي سَقَتني وقَسَت عليَّ؟

ولم تقل الخاتون شيئاً، لكنها قامت إلى حجرتها وغابت لعدَّة دقائق وعادت ووضعت في يدي رزمة كبيرة من النقود. قالت:

- تصرَّف بها اليوم، وغداً أسحب من البنك ما يكفينا للسفر سويَّة إلى بغداد. أنا أيضاً أتعبني زماني ولم تعد عظامي قادرة على الرطوبة. أريد أن أمضي ما تبقَّى لي من عمر في أرض مشمسة، وإذا مُتُّ أدفن عراقيَّة، لعلَّ روح فيليب ترتاح، أخيراً، وتباركني.

قلت لها محذِّراً، لعل خرفاً أصابها وما عادت تدري ما تفعل:

- هل تعرفين إلى أيِّ عراق سنعود؟

- أعرف... أعرف... عراق أسود يأكل ناسه الحصى ويشربون ماء النزيز. وسنجوع معهم، يا ابني، ونشرب ما يشربون... حالنا حال أهالينا.

٣٨

أنهى السائق أوراق إدخال الجثمان وختم جواز الخالتون بدون أن تنزل من السيارة، مقابل بضعة دنانير أردنيَّة تخاطفها موظفو الحدود، لكنَّ حَسبَتي كانت أكثر تعقيداً، ولم تفلح الرشوة في حلِّها.

أطال الضابط تَفَحُّصَه لجواز سفري وأعاد تقليبه مرَّات ومرَّات، وأداره بين يديه من كل الجهات، ورفعه إلى الضوء وتمعَّن فيه، كأنَّه يبحث عن كنز مخبوء بين وريقاته، أو أنَّه يريد أن يحفظ الجواز لكي يقدِّم، في الصباح التالي، امتحاناً فيه.

قال لي وهو يخزرني بعينين ضيِّقتين وبنظرة ذات مغزى:

- صلاحيَّة جوازك منتهية من سبع سنوات، فكيف خرجت به من فرنسا؟

كنت أتوقَّع السؤال وغيره من الأسئلة. وأعرف أنَّني قد أواجه الإذلال والمهانة وقلَّة الأدب، بل ما هو أكثر من ذلك. وقد قرَّرت أن

ألتزم الصراحة وهدوء الأعصاب وأن أتحمَّل كلَّ مرارات الوقوف على باب وطني الأم، أستعطي الدخول إلى مسقط رأسي.

ليحدث ما يحدث وليسألوني ويحققوا معي، فأنا لم أقتل ولم أنهب ولم أخن! ثمَّ إنَّ الجثمان الذي معي أمانة لا بدّ من تسليمها لأصحابها، و تلك هي القضية الأهم، لا مناكفات هذا الشرطي الزعطوط الأدبسز الذي يتسلى بي.

كيف سأدقُّ الباب على نجوى ؟ وبأي وجه ستخرج لتتسلَّم سارة... ساري؟ ماذا سأقول لها حين تبدأ باللطم على صدرها ونكش شعرها وتعفير خدَّيها؟ وكيف أُواسيها وأنا المخنوق بألمي، أرى نارها تشتعل في صدرها ولا يحقُّ لي أن أمدَّ ذراعيَّ لاحتواء حزنها؟

بالدموع افترقنا وبالدموع سنلتقي. فماذا يريد منِّي هذا الضابط بعد؟
قدَّمت له جواز اللجوء الذي غادرت به فرنسا ودخلت إلى الأردن، وقلت له ما سبق وقلته لضابط الجوازات الأردنيِّ من أنني كنت لاجئاً في فرنسا، وقد تركت السياسة منذ سنوات و أريد أن أرتاح في وطني، مع كتبي وقواميسي.
أخذ الجواز وقام ودخل به إلى غرفة جانبيَّة وعاد وطلب مني أن

أنتظر حتى يتم النظر في حالتي. وانتظرت واقفاً أمام الشباك، فجاء السائق ونصحني بالوقوف في الفيء، هازئاً أو مُشفقاً، لا أدري، وهو يقول:

– ما دام جوازك قد دخل إلى ذلك المكتب، يا أستاذ، فلا تتوقَّع أن نتحرَّك من طريبيل قبل الليل.

رجوته أن يذهب إلى السيارة لكي يسقي الختون ماء بارداً، وانتظرت أكثر من ساعة، دونما جواب. ولما اشتدت حرارة الشمس ذهبت أتفقَّد التابوت فوجدت رجلاً يرتدي الثياب العربيَّة ومعه امرأتان بالعباءة، يقرأون الفاتحة أمام السيارة.

مسحوا وجوههم وحوقلوا ونظروا بفضول إلى الختون الجالسة في الداخل، تحرِّكُ مروحة من الخوص أمام وجهها، لا أدري من أين جاءت بها، بينما تقبضُ يسراها على كيس من النايلون يضمُّ حفنة من تربة زوجها، على أمل أن تدفنها في أرض بغداد.

سألني الرجل:

– منين الجنازة... البقاء في حياتكم؟

– حياتك الباقية... من فرنسا.

ورأيت إحدى المرأتين تتمعَّن في سحنتي بفضول، وتعاين قَصَّة شعري وتنزل نظراتها إلى حذائي الرياضي، فخمَّنتُ أنني لم أعد

أشبه سائر العراقيين. ثم سمعتها تقول لصاحبتها:

- قليل عندنا أموات بهذا البلد حتى يجيبولنا جنايز من برَّة...

عدت إلى مكتب تأشير الجوازات وانحنيت على الشبَّاك ذي الفتحة الضيقة وقلت للضابط، بصوت شبه متوسِّل، وأنا أحتقر ذلِّي، إنَّ معي جثماناً لشابة في عمر الورد... أحمله منذ الأمس من فرنسا... والجو حار والبني آدم جيفة... ولا بدّ من توصيل الجثمان إلى أهله لدفنه حسب الأصول...

أبدى الضابط تعاطفه معي وهزَّ رأسه علامة الأسى، أو هكذا خُيِّل لي، وقام من محلِّه وخرج إلى حيث أقف، فانتظرتُ أن يعيد لي جوازي مختوماً ويفرج عنِّي، لكنَّ ابن القندرة أشار يميناً وقال بصوت فاتر:

- هل ترى الكشك الأخضر الموجود هناك؟ إذهب واشترِ قالباً من الثلج بمئتي دينار، وابحث عن طابوقة، وقم بتكسير القالب إلى عدَّة قطع، ضعها تحت التابوت... الصبر طيِّب.

الصبر طيِّب. إنَّها التعليمات.

والشمس ترسل فحيحاً لاهباً.

وأنا أسبح في عَرَقي.

وبغداد ما زالت بعيدة.

خذ منّي نصيحة مجانيَّة يا زمزم... إشبع من تراب الأرض التي تطلع روحك فيها. إنَّ الأكفان لا تحمي من شرطة الحدود.



STREAMS OF HEARTS



إنعام كجه جي



بفضل سراب عرفت كيف تغدو الحواس كمنجات وحاذيت السر الذي يحيل ممارسة الحب تمريناً على فعل الخلق.

ومعها بلغت ضفاف بحيرات لم أتيقن يوماً أنها كانت كامنة في خبايا جسدي.

وبخلاف صمتها الذي يغلب عليها في المجالس فإنها كانت تتدفق كلاماً كالبلابل أثناء الحب، وتستذكر معلقات جاهلية وخطباً تروتسكية وشتيمات لطيفة ومقامات عصملية ومزامير توراتية وأغنيات من الزمن البائد.

هل هو الغرام الذي يأخذ بيد الشهوة ويقودها، خطوة خطوة، إلى تخوم الكفاية؟

أم هي الألفة بيني وبين عراقية من بنات جلدتي، كرادية أفهم إشاراتها وتفهم إشاراتي، توصلني إلى تلك اللذة المصفاة والمصطفاة للممسوسين من البشر، أحباب النخيل والزعفران؟

إنعام كجه جي كاتبة عراقية تقيم في باريس وتعمل في الصحافة. وهي مهنة أتاحت لها أن تخالط أنواعاً من البشر كانوا ذخيرتها وهي تكتب هذه الرواية. إنها تنسل من الواقع خيطاً تشتغل عليه بمغزل الخيال لتنسج بساطاً عراقياً ملوناً تتحرك فوقه شخصيات تحمل كل منها جرحها الخاص وعطشها إلى حياة لا تفسدها السياسة: ساري الذي سافر إلى باريس على نفقة الدولة ليتحول إلى أنثى. وكاشانية الناجية من مذبحة الأرمن لتتزوج كونتاً فرنسياً. وسراب التي تذوقت تعذيب السجون ثم لذائذ الغرام. وصديقان، بعثي وشيوعي، يتنافسان في هجاء حزبيهما.

كل ذلك في لغة تسرق القارئ حتى النهاية.

الناشر

ISBN 9953-36-302-1

